الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس

كلية الأداب والفنون

مستغانم

التخصص: الدراسات الأدبية المقارنة

مذكرة لنيل شهادة الماستر في

الدراسات الأدبية المقارنة

صورة الفرس في كتاب البخلاء للجاحظ

من إعداد الطالبة :

- شنين سهام

تحت إشراف الأستاذة:

* مسعودي فاطمة الزهراء

السنة الجامعية: 2015- 2016

اهـــــداء

إذا كان الإهداء يعبر ولو بجزء من الوفاء

فالإهداء إلى

معلم البشرية و منبع العلم نبينا محمد صلى الله عليه و سلم إلى مثل الأبوية و من أحمل أسعه بكل افتخار والدي العزيز

إلى معنى الحب و إلى معنى الحنان و الثقافي الى

بسمة الحياة و سر الوجود

إلى من كان دعائها سر نجاحي و حنانها بلسم جراحي أمي الحبيبة

إلى ريقات دربي و من علموني درب الحياة

إخوتي

نعيمة ،خديجة ، نوال ، رزيقة

إلى أخي وسندي في الحياة

أخي جمـــال

إلى زوجي المستقبلي

خالـــــد

إلى من تعلمت حقيقة الحياة معهم وساندوني في بحثي خاصة

إلى خالـد و أسامة و إبراهيم في إنارة هذا البحث المتواضع

و صديقاتي

حنان ، صارة ،زهور ، أمينة، كريمة، نسيمة ، غنية ، سمية ، شهيرة .

مقدمـــــــــــة

مقدمـــــة

لقد شهدت الدراسات الأدبية الحديثة المقارنة ازدهارا ملحوظا، في مجال الصورائية imagologie ،و هذا نظرا للتعايش السلمي الذي ظهر لدى أغلب الدول، فالصورة هي جزء من التاريخ، بمعنى الواقعي الثقافي و الإديولوجي .

ترجع بديات هذا الفرع من فروع الأدب المقارن، إلى النصف الأول من القرن التاسع عشــر (19) ، عنـد قيــام الأديبة الفرنسية مــدام دوستايــل، بزيارتها الطويلة إلى ألمانيــا، و بفضلها توضحت الصورة، و تغيرت الخلفية التاريخية، بين الشعبين (الفرنسي و ألألماني).

ومن جهة أخرى و إثناء بحثنا في هذا المجال، و جدنا لهذا العلم السابق ذكره، اثره الخاص، في عمق تراثنا القديم، و بالتحديد في العصر العباسي، متناولا بالدراسة على ارض الواقع على يد أحد كبار أدباء الدولة العباسية ،إلا وهو عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ فتاريخه حافل لأنه ارتقا بالكتاب، و أثرى المكتبة العربية بكثير من مؤلفاته أشهرها البيان، و التبيين و الحيوان والبخلاء .

حيث كان هذا الأخير مجالا لدراستنا، و مذكرتنا الموسومة بـ: صورة الفرس في كتاب البخلاء للجاحظ رغبتا منا في العودة إلى التراث و التعرف على الواقع المعاش في ذلك العصر و شوقنا إلى الاضطلاع على نوادر البخلاء على طريقة الجاحظ الساخرة ز الفكهة.

وقد اثأر هذا البحث فينا مجموعة من التساؤلات لعل أهمها كيف صور الجاحظ الفرس في كتابه ؟ وما هو أسلوبه في ذلك ؟ .

و للإجابــة عن هـذه التســاؤلات فرضت علينا الدراسة خطة اشتملت على مقدمة مدخل و ثلاث فصول و خاتمة . إما المدخل تطرقنا فيه إلى لمحة ،عن العصر العباسي، و قيام الدولة العباسية و مجالاتها ، فالفصل الأول فقد عنوناه بدراسة كتاب البخلاء، و لمحة عن حيــاة المؤـلف ، ويحتــوي على تعريف الكتاب، و حياة مؤلفه كما اشرنا الى قيمة الكتــاب، و الباعث على تأليفه ، و انتقلنا إلى الفصل الثاني ، الذي أوسمناه بعنوان : مفهوم البخل لدى الجاحظ و جماليات القصة في كتابه ، كما تطرقنا إلى أسلوب الجاحظ، من خلال كتاب البخلاء ، وتطرقنا إلى الفصل الثالث و الأخير ، و الذي كان في معظمه تطبيقي و الذي عنونـــاه بـ : تقاطــع الأدب العربــي و الفارسـي ، و خصصنا المبحث الأول ، إلى التأثير و التأثر بين العرب، و الفرس و عرضنا نماذج من بخلاء الفرس، و خصوصية العلاقة العربية الفارسية .

معتمدين في دراستنا على النهج المقارن الوصفي ، و ختمنا بحثنا بخاتمة تضمنت أهم النتائج ، التي توصلنا إليها من خلال دراستنا لكتاب البخلاء معتمدين في ذلك على مجموعة من المصادر و المراجع أهمها : البخلاء تحقيقات كل من طه الحاجري ، عباس عبد الساتر العوامري ، و علي الجارم .

وتجدر الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث، و المتمثلة في قلة المراجع ، و الدراسات التي تناولت موضوع الصورائية.

و في الأخير أتوجه بالشكر إلى المولى عز وجل و إلى كل من ساعدني من قريب و بعيد و إلى الأستاذة المشرفة : مسعودي فاطمة الزهراء .

مدخــــــل :

لمحة عن العصر العباسي و قيام الدولة العباسية

يعتبر العصر العباسي أطول عصر في تاريخ الأدب العربي فقد بدا عام 132 هـ وانتهى عام 656هـ الذي سقطت فيه بغداد على أيدي المغول و بما انه كان من أخصب فترات ازدهار الحضارة العربية فقد شهد أحداث كبيرة و تغييرات اجتماعية واضحة و نتاجا أدبيا كبيرا عبر عن تلك الأحداث و تأثر بهذه التغيرات و تفاعل معها كما يطلق اسم الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ و ثاني السلالات الحاكمة الإسلامية بحيث استطاع العباسيون إن يزيحوا بني أمية عن دربهم ويستفردوا بالخلافة و قد قضوا على تلك السلالة الحاكمة و طاردوا أبناءها حتى قضوا على اغلبهم و لم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس و كان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية في سنة 1029م .

" و يسمى العصر العباسي بهذا الاسم نسبة إلى اصغر أعمام بني الإسلام محمد بن عبد الله ألا و هو العباس بن عبد المطلب و قد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم عن مناصب الدولة و المراكز الكبرى حيث انتقلت الدعوة الشيعية من الفرع العلوي إلى الفرع العباسي بقيادة محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية و خلفه ابنه أبو هاشم بعد مقتل الحسين في مدينة كربلاء حينها عرف الخليفة هشام بن عبد الملك بدعوته السرية ثم قام باستدعائه حينها أبدى له كرمه لكنه يقال انه وضع له السم أثناء ذهابه الحميمة فهي إحدى القرى الموجودة في جنوبي فلسطين حيث أن محمد بن علي بن أبي طالب كان يقيم فيها منفيا لكنه قبل موته عهد بالدعوة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس و ذكر له جميع أسرار الدعوة " [1] .

و من هنا تتدرج لدينا المراحل الأولية لبناء الدولة العباسية و نخص بالذكر العصر العباسي الأول و الذي يعتبر من قبل الكثير من المؤرخين بالعصر الذهبي " و تدل هذه التسمية إلى انتعاش الآداب و العلوم و بلوغ ذروتها من التطور كما يسمى أيضا بعصر القوة فقد تميز ببسط الدولة سيطرتها على كافة أراضي الخلافة الإسلامية الممتدة من أقصى الشرق إلى

[1] البخلاء تحقيق العوامري و علي الجارم دار الكتب بيروت 1938 ص 12.

أقصى الغرب بغض النظر عن بعض الثورات أو الانتفاضات الفاشلة هنا أو هناك ' كما تميز هذا العصر بازدهاره العلمي و الاقتصادي و التجاري فقد أولى الخلفاء العلم أو العلماء كل الأهمية و شجعوهم على الاختراعات و الاكتشافات و هذا ما سنتطرق إليه لاحقا كما قاموا بنقل كتب الفلسفة اليونانية القديمة إلى اللغة العربية فاخذوا أحسنها و زادو عليها هذا على سبيل المثال الأمر الذي أدى إلى مواكبة كل جديد من كل ناحية "[1].

" أما من ناحية الفتوحات ،فقد شهدت الدولة العباسية توسعا كبيرا و قد توالى على الحكم أو الخلافة في هذا العصر عشرة خلفاء عباسيين امتدد حكمهم من عام 132ه حتى عام 247ه و هم على التوالي "

- عبد الله بن محمد السفاح 132ه-136ه.
- عبد الله أبو جعفر المنصور 137ه – 158ه.
- محمد بن عبد الله المهدي 158ه- 169ه.
- موسى بن محمد الهادي 169ه-170ه.
- هارون بن محمد الرشيد 170ه-193ه.
- محمد بن هارون الأمين 193ه-198ه.
- عبد الله بن هارون المأمون 198ه-218ه.
- محمد بن هارون المعتصم 218ه-227ه .
- هارون بن محمد الواثق 227ه-232ه.
- جعفر بن محمد المتوكل 223ه-247ه "

و من خلال هذا التعاقب الطويل الأمد على الخلافة ما يدل على الاستقرار و الاطمئنان و العدالة و تفرغ الخليفة لشؤون بلاده و رعاية مصالح رعيته و الدفاع عن حدودها في أي بقعة منها و هذا ما أدى إلى الازدهار و التقدم في كافة المجالات العلمية و الأدبية و الحضرية ".

[1] د . سهيل طقوش تاريخ الدولة العبسية ط7 1430 دار النفائس للطباعة للنشر و التوزيع ص 25

و سنعرض من خلال هذا البحث أهم المراحل و الخطوات التي خطاها العباسيون لبناء دولتهم دون أن ننسى المساهمة الكبيرة التي قدمها الفرس للعباسين في توليهم و تمكنهم من الخلافة و التي سلبت من الأمويين سابقا " وفي الوقت نفسه كانت لهم أغراض خاصة بهم من وراء مساهمتهم في إنجاح الدعوة العباسية يقول المؤرخ المعاصر محمود شاكر لما اشتد ساعد بني أمية فتمكنوا من الأمر و قامت الدعوة السرية لآل البيت و المطالبة بالحكم و إزاحة بني أمية عنه .كانت فارس مقر هذه الدعوة و منبتها " .

و من الطبيعي بعد هذه المساهمة الفارسية في الدعوة العباسية أن يكون لهم نصيبا من السلطة بعد نجاحها لذلك اعتبر الباحثون أن الفرس هم أكثر الأمم نفوذا في الدولة العباسية ، بل بلغ الأمر ببعض المؤرخين أنهم عدّوا للخلافة العباسية دولة فارسية بقناع عربي " (1)

و سنتعمق أكثر في هذا البحث لمعرفة الأحداث المتوالية في هذا العصر في مختلف مجالاته سواء كانت سياسة أم اجتماعية أم ثقافية و هي كالتالي:

الحياة السياسية قيام الدولة العباسية :

أولا :

" قامت الدولة العباسية عام 132 هـ نتيجة التخطيط و السرية على أيدي سكان خراسان سواء كانوا عرب أم فرس أم ترك و ذلك في أعقاب الثورة التي قادها أبو مسلم الخراساني مبتدأ من خراسان ضد نصر بن سيار والي الأمويين عليها بعد أن أوقع بينه و بين الكرماني و من معه من القبائل اليمنية حتى اوهن قواه فأنقذ علية و سالت جيوشه بقيادة قحطبة و ابنه الحسن حتى وصلا الكوفة فانبرى أبو العباس السفاح معلنا نصرهم على بني أمية و قتل آخر خلفائهم مروان بن محمد "[1]

لم يكن هذا ليحدث سريعا بل مر بعد عدة مراحل على يد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي توثقت صلاته بابي هشام وريث رئاسة فرقة الكيسائية الشيعية في بلدة الحميمة فذهب يعد العدة في جو من السرية التامة و كانت نقاط الارتكاز الجغرافية تعتمد على

[1] د محمد سهيل طقوش ، مرجع السابق ص 33.

خرسان لأنها موطن الفرس الحاقدين على حكم بني أمية الذي يضطهدهم و الكوفة لأنها موطن الشيعة الذين يرون في بني أمية مغتصبين للحكم بدل أبناء علي بن أبي طالب ، و كانت الخطة المتبعة في ذلك للإطاحة ببني أمية تقوم على إطارين نظري و تطبيقي ، فأما الأول ارتكز على إثارة الرأي العام ضد حكم بني أمية مستغلين في ذلك فكرة قتل الحسين بن علي الذي اتهم به الأمويين و الثأر لمقتل أولاد فاطمة الزهراء"[1]

و أما الجانب العملي فتمثل في اتخاذ خرسان نقطة الانطلاق الأولى لكونها مليئة بالفرس الساخطين على الأمويين و لبعدها عن مركز الخلافة .

- إيجاد نقطة إشراف عامة تمثلت في الكوفة محضن الشيعة و بني العباس لتكون بمثابة غرفة عمليات مشتركة ترسل منها التعليمات.
- العمل على إضعاف قوة الأمويين من خلال الإيقاع بهم عسكريا.
- اعتماد الجانب السري في التوجهات الإستراتيجية.
- تحري الوقت المناسب للعمل العسكري الذي لا يقبل التراجع أو الانحلال .

" و قد نجح العباسيون بهذه المهمة وسائدهم فيها جيش فارسي أتقن دوره تماما في قضت دولة بني أمية في معركة الزاب الفاصلة شمالي العراق قتل فيها مروان بن محمد وتبع ذلك حركة استئصال لآل أمية ،هرب أخرهم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأقام دولة استمرت ثلاثة قرون "[2]

الحياة السياسية:

" تحولت الخلافة من دمشق و أصبحت بغداد عاصمة الدولة العباسية على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية و الإدارية

---

[1] محمد سهيل طقوش ، المرجع نفسه .

[2] https://ar.wikipedia.org/wiki

للدولة العباسية بالإضافة إلى هذا نجد النظم السياسية تنتقل بحافرها بكل شؤون و كأنما أصبح الخليفة العباسي ساسانيا فهو يحكم حكما مطلقا و هو حكم ينتقل بالوراثة يطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساساني ، إذا كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين و حماة له و حراسا و كان العباسيون من بيت النبوة يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين و اتخذوا من علماء الفقه و الكلام سندا لهم فيما يزعمون و هو زعم باطل ، لان الولاية العامة على المسلمين لا تورث و إلا ورثها العباس عم الرسول بعده ولم يرثها أبو بكر الصديق و حتى الأموال و الأعيان التي تركها الرسول لا تورث لما صح في الحديث النبوي من قوله عليه الصلاة و السلام " إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة" .و إذا كان هذا الإرث ممنوعا في الأعيان و الأموال فمنعه في ولاية الأمة ألزم و اوجب إذ ينبغي أن يتولاها الكفء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر و عمر رضي الله عنهما "[1]

ومن هنا فقد تتابع الخلفاء على كرسي الخلافة و كان أزهى العصور هو عصر المنصور من حيث الثقافة و أزهاها في الفتوحات عصر الرشيد و تأتي العصور الأخرى بين هاتين الدرجتين من الزهاء والتقدم حيث أن طريقة الحكم التي اعتمدها العباسيون كانت مقتبسة بكاملها من النظام الفارسي و قد كان الوزراء و القواد أكثرهم من الفرس و أشهرهم : البرامكة و بني سهل ، أما العرب فكان أشهرهم آل المهلب ، و آل معن بن زائدة الشيباني فقد تولوا مناصب وزارية و لقد كانت السلطة العربية مقتصرة على كون الخليفة

عربي أما الذي بيده زمام الأمور فقد كان فارسي و ذلك في بدايات هذا العصر وقبيل تولي المعتصم للخلافة .

" و اتسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية ،و كان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية و يرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص، و يسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام ،أو بيت

[1] د شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول (ط12) ، ص (20-19)

المال و قد ولي عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند الذي كان يعنى برواتبهم و كان لدار الخليفة ديوان خاص يقوم على نفقاتها و من أهم الدواوين ديوان الرسائل الذي لعب دورا كبيرا في نهضة النثر العربي و كانت تصدر عنه رسائل الخلفاء " [1]

و انطلاقا من هذا القول نلاحظ أن صيرورة الحكم في الخلافة العباسية كانت مبنية على نظام حكم فارسي محض و لأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدي الفرس و بمساعدتهم فمن الطبيعي أن يكون وزراء العصر العباسي من الأعاجم مثل : البرامكة و بني سهل و كان الوزير في أيام العباسيين ساعد الخليفة الأيمن نائبا عنه في حكم البلاد ، يعين الولاة ، يشرف على الضرائب ، يجمع في شخصه السلطتين ، المدنية و الحربية ، صاحب المشورة التي يسترشد بها الخليفة

" و كان الوزراء في العصر العباسي يتجنبون تسمية أنفسهم باسم وزير على الرغم من قيامهم بأعمال الوزارة و مهامهم فإليهم يرجع الفضل في ضبط أمور الدولة و نشر لواء الأمن و العدل بين الرعية و مرد ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقي البعض منهم حتفه على أيديهم و لكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة مثل : عماد الدولة ، عز الدولة ، ركن الدولة "

و من هنا أيضا نستطيع القول بأن الفضل الكبير في تسيير الدولة يبدأ من مهام الوزراء و كيفية تسييرهم للشؤون الداخلية للدولة و توفير الأمن و العدل و غيرها من الظروف المساعدة على أمن و استقرار البلاد ما يؤدي إلى تطويرها و الحفاظ عليها .

و نعود بالذكر إلى التحدث قليلا عن سمات أو مميزات العصر العباسي منها :

"سيطرة شبه كاملة للفرس على الجهازين العسكري و الإداري ، فعندما قامت الخلافة العباسية كان للفرس اليد العليا في قيامها كما سبق و أن ذكرنا و خاصة الخرسانيين و قد سنحت الفرصة لهؤلاء للاستئثار بالسلطة و تولي الحكم ، و ساعد على ذلك شدة ميل

---

[1] د شوقي ضيف المرجع نفسه ص(23-22)

العباسيين إلى الفرس و إيثارهم بالمناصب المدنية و العسكرية و قد أثار ذلك كراهية العرب بتقريب الفرس إليهم فقد دب في نفوسهم دبيب الكراهية لهم و للفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم لممالأة العباسيين لهم و اعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن و الثورات في البلاد الإسلامية "[1]

و نتيجة هاته السيطرة الشبه كاملة على المناصب العليا في الحكم من طرف الفرس و تلقيهم الرعاية من طرف الخلفاء العباسيين الذين يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي سيطرة الآراء الفارسية كما نجد أيضا الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل سيسان

الحياة الاجتماعية :

كانت حياة العرب خالصة لهم يعيشون في القيافي و القفار لا يعرفون من مظاهر الترف و النعيم إلا القليل و بتداخل العرب و الفرس تأثرت حياتهم بالفرس و بحضارتهم في الطعام والشراب و القصور و من هنا سنتطرق إلى هاته المظاهر من خلال دراستنا للتداخل العربي مع بقية الشعوب الأخرى

لقد كانت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

1- الأتراك : كان لهم النفوذ السياسي في الدولة و قضوا على نفوذ الفرس و العرب جميعا و تولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة و كان فيهم عبث بالأخلاق و شراهة في جمع الأموال ، و كانوا مشهورين بالجمال و النظافة ، فكثرت الجواري الأتراك في قصور الخلفاء و الأثرياء حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ’ طابع الترك حب الجندية و الفروسية و الانتصار لمذهب أهل السنة و البعد عن الفلسفة و الجدل في الدين ’ وحب المال و جمعه من أية سبيل و مع عدم الرغبة في الإصلاح »[2]

---

[1] د شوقي ضيف المرجع سابق ص 30-31.

[2] د محمد خفاجي ، الحياة الأدبية (ط1) ، 2004 م دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ص (23-22)

2-العنصر الفارسي : «كانوا عماد النظام السياسي و الإداري للدولة ' و لكن الأتراك أقصوهم من منزلتهم في العصر العباسي الأول فاخذوا يدسون الدسائس ' ويدبرون المؤامرات ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة و كانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبة و عاداتهم و تقاليدهم العامة ' و كانوا دعاة الترف و المجون و الحضارة و طابعهم حب السيادة و البذخ و القدرة على تنظيم إدارة الدولة و تشجيع العلوم و الظهور بمظهر التشيع »[1]

3-العنصر العربي :«و هو أقصى عن النفوذ في الدولة و الخلافة و كان للمعتصم في ذلك اثر معروف و كان نفوذ العرب اظهر ما يكون في الشام و الجزيرة حيث كونوا لهم دويلات كثيرة و طابع العرب الزهو و الاعتزاز بالنفس و الفضائل و الميل إلى الأدب والرغبة في السيادة »

- و هناك عنصران آخران كان لهما أثر في الحياة الاجتماعية في هذا العصر و هما الزنوج و الروم فأما الروم فقد كثر أسراهم في بيوت الخلفاء و الأغنياء حتى كان بعض الخلفاء من أمهات روميات ' وكانت الجواري الروميات و الغلمان الروم يملأن القصور و تعشقهم الشعراء ' فكان للبحتري غلام رومي اسمه نسيم و كذلك كان لسواه من الشعراء و من هذا العنصر ابن الرومي (213هـ) أما الزنوج فكانوا يجلبون من سواحل إفريقيا الشرقية و كانوا يعملون في الزراعة و الصناعة و في بيوت الطبقات المتوسطة »[2]

- " و كان الفرق بين الطبقة الخاصة و العامة كبيرا و النفوذ و الثروة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف و اللهو و المغالاة في البنيان فقد انفق المعتصم على بناء سا مراء أموالا طائلة و كذلك فعل المتوكل في بناء الجعفري و سواه من المباني التي انفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير و بني المعتضد قصر التاج في الجانب الشرقي من بغداد و أتمه ابنه المكتفي كما بنى المعتضد أيضا على بعد ميلين منه قصر الثريا الذي بلغ طوله ثلاثة فراسخ و انفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير ووصله بالقصر المبني

---

[1] د محمد خفاجي المرجع نفسه ص (25-24)
[2] د شوقي ضيف المرجع السابق ص(30)

بسرداب تحت الارض بلغ طوله ميلين و كانت تمشي فيه جواريه و حرمه و في تهنئته بقصره نظم ابن المعتز قصيدته "[1]

- *سلمت أمير المؤمنين على الدهر * و لازالت فينا باقيا واسع العمر.

* حللت الثريا خير دار ومنزل * فلا زال معمورا و بورك من قصر.

اللهو و الترف :

«و هكذا كان الترف و النعيم حظ عدد قليل و هم الخاصة من الناس و بعض رجال التجار و الصناعة ' حيث كان الفقر و البؤس و الشقاء للعامة و هم أكثر الناس و كان من مظاهر الترف في هذا العصر كما ذكرنا كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور فكثر نسل الجواري و اختلطت الدماء و أشاع هؤلاء الجواري فن الغناء ، كما نشرت اللهو و المجون بين شتى الطبقات و لتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة و عامة و ترف و فقر و نسك و لهو ، كانت البلاد معرضا للنحل و مجالا لدعاية الجماعات السرية .

و كانت خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هيأ لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب و الفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا أن المنصور خلف حين توفي أربعة عشر مليونا من الدنانير و ستمائة مليون من الدراهم ' وكانت هذه الأموال تصب في حجور الخلفاء و من يحف بهم من الوزراء والقواد و الولاة و العلماء و الشعراء و المغنيين ، و كان لهذه السيول التي كانت تسيل إلى حجور العلماء و غيرهم أثرها الواسع في نهضة العلوم و الآداب، و الفنون و طبيعي ان تدفع هذه الأموال إلى النعيم فحسب بل

---

[1] د .محمود شاكر كتاب تاريخ اسلامي الدولة العباسية دار النشر مكتب اسلامي 2000 ج 2 ص23 .

أيضا إلى الترف في الحياة و كل أسبابها المادية من دور مزخرفة و فرش وتيرة و ثياب أنيقة معطرة و مطاعم و مشارب من كل لون و التماس لكل أدوات الزينة و التفنن فيها تفنن يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة »[1]

«و بالغ النساء حرائر و جواري في زينتهن و أناقتهن فكن يرفلن في الثياب الحريرية و يختلن في الحلي و الجواهر متخذات منها تيجانا و أقراطا و خلاخل وعقودا و قلائد و يقال عن جارية البرامكة كانت تتحلى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار كان قد أهداه إليها الرشيد .

و لا ريب أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التي كانت تحيا بؤس تقوم على شظف العيش لينعم أصحاب الطبقة العامة و من أهم الجوانب التي يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها و مشاربها فقد طعموا و شربوا في أواني الذهب و الفضة.

1

)الحياة الثقافية :

لقد كان انتشار الإسلام و انطلاق الفاتحين المسلمين في أفاق الأرض ينشرون الدين الحنيف «السبب الأول و المباشر في أن يطلع العرب و المسلمون منذ العصر الأموي على ما عند غيرهم من الأمم من علوم و ثقافات في شتى ميادين الحياة ’ فيأخذوا منها ما يطورون به ما عندهم و ما هم بحاجة إليه ناهيك عن أن القرآن العظيم يدعو إلى إزالة الغشاوة عن العيون و الوقر عن الأذان و يدعو العرب و يذكرهم و يحثهم في معظم آياته على استخدام العقل و التفكر و البحث و التأمل في ألاء الله و نعمه و السير في الأرض لاستخراج كنوزها و أسرارها مما يسهل أعمارها فكانت الألفة بين الإنسان الجديد في فكره الواسع و افقه النير المقبل على الحياة ، ثم جاء العصر العباسي و جاء الانفتاح على الشرق و الغرب حتى أطلق المؤرخون على هذا العصر لاسيما عصر المامون بأنه العصر الذهبي للأمة

---

[1] د . محمود شاكر المرجع السابق ص 25

الإسلامية حيث وصف للفكر عنانه مما كان له ايجابيات التي تعد للأمة في كثير من الأمور »[1]

و في الجانب المشرق من تاريخ هذه الأمة راح الخلفاء العباسيون يشجعون العلماء بكل ما أوتوا من حكمة و أموال على التنافس في ميادين العلم ،«فقد أغدقوا على علماء الأمة من الأموال الشيء الكثير و منحوهم العطايا الجزلة و قد جارى الخلفاء في ذلك الولاة و كبار القواد فكان أول من سن ذلك و جعله تقليدا للدولة " المهدي " فانه أكثر من مكافآته للعلماء إكثارا جعلهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة و احتذاه في ذلك ابنه الرشيد ، فيقال انه وصل الأصمعي يوما بمائة ألف درهم و يروى أن جعفر البرمكي وصله بخمسمائة ألف»[2]

و لقد كانت المساجد تقوم بالدور الأكبر لأنها وسيلة اكتشاف عن هؤلاء النوابغ الذين يلمعون في حلقاتها ' فيبعث فيهم إلى دار الخلافة ليتبناهم الخليفة تشجيعا لهم في حقول العلم فقد كان لهذا العامل الأثر الأكبر في دفع و ازدهار الحركة العلمية قدما لما للوضع المادي من اثر كبير في نفس العالم فهذا يرفع عنه الكثير من الأعباء و المتاعب فيجعله متفرغا للعلم و العطاء موغلا في سير غور الدرس مخرجا أجود ما عنده و «هكذا خطت هذه الأمة خطوات جديدة في حركتها العلمية مقبلة على تعلم ما عند الأمم سريعة في مضمار الترجمة من العربية و إليها متلقية الدعم الغزير من عطايا و منح تعد لعلمائها »[3]

و أمام هذا الإقبال الذي لم يسبق للأمة أن عهدته على العلم و المنافسة فيه و أمام هذا النشاط المنقطع النظير في حقول الترجمة لم تعد الكتابة على الجلود وورق البردي الذي كان مشهورا في مصر كافة لذا «اخذ استخدام الورق ينتشر و يعم في ذلك العصر و هذا كان من أهم أسباب التقدم العلمي و بلوغ الحركة العلمية غايتها حتى غدت توجد مصانع

---

[1] شوقي ضيف العصر العباسي الأول ص 102 دار المعارف القاهرة ص 102

[2] شوقي ضيف المرجع نفسه ص 103

[3] رابعة عبد السلام المجالي ملامح الحياة العباسية من خلال كتاب الحيوان للجاحظ (ط1) 1428 هـ 2008م دار كنوز المعرفة العلمية للنشر و التوزيع ص(17-16)

خاصة للورق كما فعل الفضل بن يحي البرمكي فقد انشأ في عهد الرشيد مصنعا في بغداد للورق فتفشت الكتابة فيه لخفته و غلبته على الكتابة في الجلود و القراطيس و كان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم »[1]

و هكذا تسابق العلماء في إصدار مجلدات العلم الضخمة و إعداد النسخ منها و ذلك لانتشارها و زيادة الطلب عليها حتى اتسعت صناعة الورق فاتخذ العلماء لأنفسهم و راقين ينسخون كتبهم وينشرونها فغدة الكتب مادة أساسية للمعرفة فعمت دكاكين الوراقين و غدت الوراقة من أشهر المهن المعروفة آنذاك و يكفيها شهرة و معرفة أنها كانت من أهم مصادر الثقافة التي أسهمت في بناء شخصيات عظيمة.

كانت ثقافة العصر العباسي، ثقافة عربية متجذرة في اعماق التاريخ العربي وفدت بالثقافات الوافدة عليها من هندية و فارسية وتركية شرقا وغربا ، حتى غدت مزيجا مذهلا يلزم المرء لاختراقه و الاندماج فيه ان يكون معتدا بسائر العلوم كما وصفه ابو عثمان و الجاحظ هو ابن هذا العصر ’ رجل مثقف بذاته كان ميال الى العلم و الثقافة بطبعه سابقا الى مصاحبة الكتب و هو الذي ما وقع بين يديه كتابا الا قراه فثقافته متنوعة واسعة تحيط بجميع الوان المعرفة الذائعة في عصره فهو عالم من علماء الدين و متكلم من الطراز الاول و بحاثة في اللغة و بيانها و ادابها و قد خاض في رحاب العلوم و المجان ما كان منها عربيا اصيلا و ما كان منها مترجما دخيلا. [2]

اعتبر المؤرخون ان العصر العباسي هو اخصب القرون من حيث النتاج الفكري و ذلك نتيجة الازدهار الثقافي الذي شهدته شتى الميادين.

---

[1] رابعة عبد السلام المجالي المرجع نفسه ص(20-18)

[2] شوقي ضيف عصر العباسي الاول ط 8 دار المعارف القاهرة ص 102 .

«فالحياة الثقافية بصفة عامة في العصر العباسي لم ةتكن موازية لذلك الاتجاه لتردي السياسي و الانحلال الاخلاقي و انما كانت تسير بخطى حثيثة في اتجاه عكسي فبقدر ما كانت الهوة التي هوى فيها الوصع السياسي و انحدر اليها الوصع الاجتماعي عميقة سحيقة ' بقدر ما كانت القمة التي ارتفع اليها الوضع الثقافي سامقة عالية ».

و في ذات الصدد يقول «عبود مارون» : «لقد كان هبوط الخلافة في القرن الرابع ارتفاعا للادب فلولا هذه الخصرات التي تدفقت منها الاموال كالانهار لم يبدع البديع مقاماته التي كان لها ابعد الاثر في الادب العربي ».

نجد ان الحياة السياسية و الثقافية لا تسير جنبا الى جنب ذلك ان فترة الضعف السياسي منذ القرن الرابع تزامنت مع ارتفاع سهم العلوم و الاداب فكانت هذه الفترة هي الاخصب فكريا و ثقافيا.

- و قد اطلق المؤرخونعلى هذا العصر بانه العصر الذهبي للامة الاسلامية حيث اعطى للفكر العنان و هذا كان له الاثر الايجابي في ازدهار العلوم.
  غيرهم اكثر خصوبة بالادباء و الشعراء من بلاطهم.. [1]

«و الخليفة المامون هو من افسح للفكر سبيله و أعطى للنقاش حريته فغدا بمجلسه مسرحا للجدل و أصحاب الكلام ، فيتقرب اليه العلماء و الفقهاء و كان بطبعه خليفة مثقفا متابعا لمستجدات العصر فسعى لتطوير اهل عصره من خلال تطوير نفسه حتى شاع العلم و المعرفة لدى الناس على اختلاف طبقاتهم و مذاهبهم و شهد الناس هذا التصال الخصيب المثمر بين الثقافة العربية الاصيلة و بين ثقافات الامم الاخرى فارسية و هندية او يونانية و

[2] مصطفى الشعكة بديع الزمان الهملاني رائد القصة العربية و المقالة الصحفية ص 46

هكذا مضى العلماء في ميدان العلوم لاسيما العلوم العقلية من طب و رياضيات و تنجيم و فلك».

اما فيما يخص العلوم فقد بلغ التفكير الاسلامي مدة الاقصى و نضجت العلوم و صنفت الكتب في مختلف الفنون و الاغراض "«فكتب «ابن جني »ابحاثا فلسفية في اصول النحو و اشتقاقات اللغة و احكام الحروف الهجاء و ما يصيبها من اعلال و قلب و ابدال ووضعت المعاجم اللغوية الكبيرة نتيجة لكثرة المصطلحات العلمية و اصبحت الحاجة ملحة الى جمعها و التعريف بها و هو ما جعل«الشريف الرضى»يتجرد لوضع كتاب يفي بهذه الحاجة و هو كتاب «التعريفات»"[1]، و الذي جعل اوضح فيه الاصطلاحات العربية مرتبا على حروف المعجم و في هذا القرن وضع «الخليل»اول نسخة من كتابه «العين »و ثاني معجم الف هو «ابن دريد».

و ازدهرت الفلسفة الاسلامية و استقلت عن الفلسفة اليونانية بميزة توفيقية خاصة «و نبغ الفلاسفة الكبار كابن سينا الملقب بابن سينا بالمعلم الثالث بعد ارسطو و الفارابي و من اشهـــر ما كتب «القانون في الطب »وكتاب الشفاء في الالهيات و علوم الطبيعة و الرياضيات و قد كان الكتاب عماد الغرب في دراساتهم الطبية اما «البيروني »فقد اتجه الى الرياضيات و الفلك و حذفهما حذفا رائعا و عاش في رعاية قابوس بن وشكمير»ثم صحب محمود الغزنوي وتعلم اللغة السنسكوتية و درس فيها الفلسفة هناك و عقائدهم و درس التنجيم و التاريخ و الفلك و لعل اشهر مصنفاته «القانون المسعودي »في الهيئة و التنجيم سنة 321 الذي الفه السلطان محمود و ظلت طول العصر علوم الاوائل ناشطة في مقدمتها الرياضيات و الفلك و نجد في الفلك ابو جعفر الخازن الخراساني الذي له كتاب في الفلك. ووصف فيه عددا من ألات الرصد الفلكية .

"اما الجغرافية فكانت مختلطة بالتاريخ غير منفصلة عنه و قد زادت مادتها افل لاالرحلات ’ فاضيف اليها جهات جديدة منها في اواسط افريقية و منها داخل سية و شاع

[1] بطرس البستاني ادباء العرب في الاحصر العباسية دار عبود ماروت 1979 ص: 409 .

رسم الخرائط و كان المسعودي اشهر من اشتغل بالتاريخ و الجغرافية من اثاره كتابه الموسوم بمروج الذهب "[1].

كانت هذه لمحة خاطفة عن بعض العلوم و الانتعاش الادبي الذي ساد في العصر العباسي بصفة عامة و حاولنا التركيز على القرن الرابع الهجري خاصة نظرا للرقي العلمي و الادبي وقتئذ و الان وبعد هذه النظرة الشاملة نتحدث عن النثر الذي بلغ مكانة راقية في هذا القرن.

" فقد كان للنثر النصيب الاوفر من هذا الازدهار الثقافي اذ بدا يكتسح المواقع الشعرية في احتكارها الطويل للمسامع و النوادي و قصور الخلفاء و الامراء فوثب وثبة واسعة موفقة في شكله و مضمونه ذلك ان لغة العقل هي النثر و العقل تفكير نظري لا تعوقه قيود الاعراف و التقاليد في حين ان الشعر لغة العاطفة التي تتجاذبها الاعراف تتعاورها التقاليد الاجتماعية في حين ان لغة العاطفة فتقيد حركتها و تعوق سيرها و من شعر كان الشعر دائم التلفت الى الوراء لكن النثر ماض الى الامام.

الامر الذي يدفع النثر الى سرعة الاستجابة للتطور بقدر ما يقف بالشعر و يبطئ حركة"[2].

هذه هي الأسباب الكامنة وراء تطور النثر وعلو مكانته الادباء و الخلفاء و تفضيله على الشعر لانه يوافق السليقة.

و قد تجمعت في القرن الرابع الهجري خصائص ادبية كثيرة شعرا اتسعت هذه الخصائص و التي سنوردها في بضعة اسطر:

و لعل اهم ميزة انطبع بها النثر في القرن الرابع هي التزام السجع في رسائلهم حتى المطولة منها ، و قد بالغوا في استخدام المحسنات اللفظية و اكثر وا من الاستعارات و التشبيهات و جسموا المعاني و تلاعبوا بالالفاظ و اعتنوا بالصنعة لفظا و تعبيرا الى درجة كبيرة غير انه لا يمكن القول ان جميع ادباء العصر العباسي التزموا هذه الميزة اذ ان هناك

---

[1] بنظر مصطفى الشعكة ص 260-261.

[2] بطرس البستاني المرجع السابق ص : 400 .

من كان يفر منه مثل «ابن العميد»و«ابي حيان التوحيدي »...... في حين ان هناك من لم يخدم النثر انتاجهم لانهم كتبوا في التاريخ او اللغة ...مثل :«مكسوبة» و« الجرجاني».

و قد تضمنت رسائلهم الكثير من اطايب الشعر و مختار الامثلة و كانوا يفتتحون رسائلهم في احايين كثيرة ببيت من الشعر و منهم من يفتتحها بالحمدلة و منهم يختمها بالشعر ، اضف الى ذلك ان النثر قد اخذ خصائص الشعر و احتلت الرسالة اغراض القصيدة في الموضاعات التي يتطرقها الشعر من وصف و غزل و فخر و مدح .....و هذا لتحلل النثر من البحور و القوافي و الاكتفاء بالسجع و الجناس و هذا جعل فسح لهم المجال للوصول الى ما عمدوا الى اصطناعه من تعابير نثرية مترفة صورت خوالج احاسيسهم.

ولعل اهم الفنون النثرية التي التحمت فيها هذه الصفات في هذا القرن هو فن المقامات ، فما هي المقامة الى من ترجع في نشاتها ، و ما هي الاثار التي استقت مادتها الاولى.

الفصـــــــــــــــــل الأول :

دراسة كتاب البخلاء و لمحة عن حياة الجاحظ

المبحث الأول : التعريف بكتاب البخلاء وقيمته

« هـــو كتاب ظريف في نوادر البخلاء، و احتجاج الأشحاء، و أخبار المقتصديـن من أهل البصرة، و بغداد و خرسان ممن احتك بهم الجاحظ، أو قرأ لهم أو وقف على أخبارهم ،ساعيا في ذلك إلى تصوير أخلاقهم، و عرض أحوالهم و طرقهم، في الحرص كما يسعى في الوقت نفسه إلى تبيان حجة طريقه، أو استفادة نادرة عجيبة »[1].

« يستهـــل الجاحـظ كتابــه بمقدمة، يتناول فيها نفسية البخيل، و كيفية شعوره بالآفة و عجزه عن تقديمها، فينتحل لنفسه الأعذار ، ثم يثبت الجاحظ رسالة لسهل بن هارون، يرد فيها على بني عمه، الذين اتهموه بالبخل ، ينتقل بعد ذلك إلى سرد نوادر البخلاء، مبتدئا بأهل خرسان، و مروجين البخل طبع فيهم، و في طبيعة أرضهم، و حياتهم ثم نوادر أهل البصرة ....، و يسرد بعدها قصص، من ذاع صيتهم في البخل، أمثال زبيدة بن حميد الصوفي و خالد بن يزيد و الحارثي و غيرهم [2].

و هنـا الجاحـظ يورد لنـا رسائـل يـذم فيهـا البخـل، و يمـدح الجـود أو العكس، دون أن ينسى و يفرد قسما خاصا لأطعمة العرب، و منافعها و مضارها، متحدثا عن النيران و دورها في هداية الضالين، مستشهدا في كل ذلك بالأحاديث، و الآثار و الشعر، مما يدل على ما كان للجاحظ، من زاد طويل في الثقافة و الاستيعاب .

---

[1] البخلاء الجاحظ تحقيق أحمد العوامري و علي الجارم ج1 دار الكتب العلمية بيروت ط2 ص:12

[2] البخلاء الجاحظ تحقيق عباس عبد الساتر ، منشورات دار و مكتبة الهلال بيروت طبعة أخيرة ص: 20

كمــا يعتبر كتاب البخلاء تصوير لأحوال فئة من الناس، اتخذت لنفسها منهجا معينا، في التفكير، و التصرف و السلوك، و باتت مقتنعة به اقتناعا كاملا، تبددت في ظله كل الأشياء الأخرى، و أصبح البخل واقعهم، و مفهومهم، و حياتهم التي يسيرون عليها محاولين إسدال ستار من العلم عليه، و قد كان الجاحظ في كتابه، عالم اجتماعي و ناقد في نفس الوقت، محللا لأوضاع طبقة من المجتمع العباسي، و التي تأثرت بعوامل طارئة جديدة، ودخيلة حيث استهل كتابه بمقدمة طويلة ،و انتقل إلى إثبات رسالة سهل "بن هارون"، التي بعث بها إلى أقربائه، الذين اتهموه بالبخل، كما ذكر نوادر البخلاء، باديا باهل مرو، و خراسان، متوقفا عند أهل البصرة، منتقلا إلى الأشقاء من أصحابه، كزبيدة بن حميد و غيرها من النوادر المختلفة، و طرائف شتى، استطاع من خلالها ان يعطينا عينات عندهم اقتصاد، فني و له في ذلك أراء قلما تخطر ببال إنسان .

طبع كتاب البخلاء مرارا و تكرارا ، و كان أول من طبعه المستشرق "فان فولتن " "van volten " ثم طبع بمصر سنة 1323 هـ، ثم طبعة علي الجارم و العوامري سنة 1939 ،مطبعة دار الكتب المصرية، ثم طبع بتحقيق طه الحاجري، في دار الكاتب المصري بالقاهرة، سنة 1948 في 465 صفحة، ثم طبعة أحمد محمد أمبيريك، صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء، منشورات عام 1985 ولهاني العهد بعنوان صورة البصرة، في بخلاء الجاحظ بغداد 1990.

حال الجاحظ في فترة تأليف البخلاء

" كتب الجاحظ كتابه البخلاء بعد إصابته بالفالج ، و هذا ما يمكن ان نستنتجه فيما جاء في هذا الكتاب على لسان رجل يد على محفوظ ، النقاش ، قال : مخاطب الجاحظ ...." و أنت رجل قد طعنت في السن ، و لم تزل تشكو من الفالج طرفا و إذا وهو قد كتبه بعد أن اشرف على مغرب حياته ، وبعد ان بدت الأمراض تأوده "[1]

---

[1] رابح العوبي ،فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب التربيع و التدوير و البخلاء و الحيوان ،الجزائر ،ط1 ،ص:196

1- قيمة كتاب البخلاء:

يعد كتاب البخلاء احد الكتب الترابية الهامة، التي استطاعت ان تجسد لنا العصر العباسي بكل حيويته، فتنقل لنا الحياة الاجتماعية، بكل تفاصيلها و تفاعلاتها، كما استطاعت ان تنقل لنا الحياة الثقافية بكل إشعاعاتها، و رحابتها المدهشة، إذ ظهر فيها امتزاج الثقافات بأحلى صورة، حيث يحس المرء مع سرد البخلاء انه أمام ممكنات جديدة، كانت خفية في فهم التاريخ، لان النصوص لا توجد في فراغ، مكتفية بعزلتها الرائقة، عن السياقات الاجتماعية و التاريخية، و ليس التراث نفسه بالنصب الفقم القائم، فيما وراء الزمان و المكان، بل هو كما أكد " بول ريكو "« بناء سردي يتطلب عملية إعادة تأويل مفتوحة النهاية، و بالتالي فان التراث يعني أيضا معاينة الوعي، بمعنى التمييز النقدي، بين التأويلات المتصارعة »1.

و انطلاقا من هذا الكتاب يتبين لنا صورة مجتمع، بدا يعيش قيم حياة جديدة، و يرفض قيم البداوة التي ترى في صفة الكرم، إحدى أهم مظاهر استمرارية الحياة، في الصحراء. في حين بات الاقتصاد جزءا حيويا، من حياة مدنية أكثر تعقيدا، إذ بات الإنسان يحسب الزمن، و مصائبه، حسابا فهو يجسد لنا اضطراب القيم، في ذلك العصر بين الصحراء و الحضر أي بين بداوة مرتحلة في تفاصيلها المعيشية، لكنها راسخة في قيمها في مدن حديثة يعيش فيها الكثير من الهامشين الطفيليين، الذين يستغلون القيم البدوية ليعيشوا عالة على موائد الناس، كما يجسد لنا اضطراب هذه القيم البدوية في أعماق النفس الإنسانية، و صراعها بين الكرم و البخل، و من هنا فالكتاب ذو قيم هامة في المجال الأدبي و الفكري، و الاجتماعي و التاريخي و هي مجسدة .

---

[1] الجاحظ البخلاء تحقيق محمد طه الحاجري القاهرة دار المعرف بدون تاريخ ص: 214

ا – القيمة الأدبية :

«تتمثل في أسلوب الجاحظ، في الكتاب فهو أسلوب سلس ، متين ، دقيق ، كاشف يتضمن أدب الطباع، أو السجايا ويدل على تطويع الجاحظ للغة، بما يتفق مع شعوره و خياله و ذلك في سبيل فنه و مآربه، انه أسلوب يحكي ذوق صاحبه، و طبعه و نفسه التي بدت في عدة ادوار تجد و تهزل، و تسخر و تتهكم و تقص، و تحدث و تصور الأذواق و الطباع فتفيد و تؤنس و تنوع فتخلص، و من هذا الكتاب لا نكاد نخرج من صور حية لا تخلو من الابتكار و الإبداع »[1]

و في هذا يدل دلالة قاطعة على أن الكتاب، فريد من نوعه ، جديد في فنه تتمثل فيه الذاتية و الموضوعية ، و يجتمع فيه الأدب و العلم و الفكاهة، و النقد على صعيد واحد و منه حق اللغة العربية أن تفاخر، به بين لغات العالم و آدابها .

ب)- القيمة الفكرية :

«تنحصر في الأقوال الكثيرة المتنوعة، و الأحاديث الحوارية ، التي تحلل أعمال النفس البشرية ،و بواعثها و أغراضها تحليلا نفسانيا عميقا، تجد فيه الجانب النظري التطبيقي معا ، في روح مرحة فكهة ، مزجت الجد بالهزل ، و الفلسفة بالفن و التفكير و التحليل بالاطلاع الواسع.

هذا فضلا عن الرسائل الثلاث التي تضمنت، اثنتان منها دفاعا عن البخل ، و تضمنت الأخرى دفاعا عن الجود ، و في غضون كل ذلك نعثر على آراء في فلسفة الاقتصاد و الاجتماع و الطب و تحليل نشوء بعض الحالات الخلقية بالحالة الاقتصادية ، فمن كان في الريف و الكفاية ، و كان مخمورا بسكر الغنى ، كثر نسيانه و قلت خواطره و من احتاج تحركت همته ، و كثر تنقيره ، و عين الغنى انه يورث البلدة و فضيلة الفقر انه يبعث الفكر »[2]

---

[1] البخلاء طه الحاجري ،المصدر السابق ص: 215

[2] رابح العودي المرجع السابق ص: 197

و منه يتبين لنا خبايا النفس البشرية من خلال التحليل النفسي العميق لها

ج)- القيمة الاجتماعية و التاريخية :

«تتجلى فيما يعرضه الجاحظ من لوحات فنية تصور، جانبا من طبائع المجتمع العباسي الـذي عاشــه و هذا الجانب هو جانب البخل، و البخلاء الذي قلبه على جميع و جوهــره ، و نظر إليه من كل زاوية- و كشف ما بينهم و بين غرهم ، فتتصرف بذلك عاداتهم في المأكل و المشرب و الملبس و المعاملة، و طرق التفكير و أسلوب الحياة الاجتماعية بصورة عامة، و هذا فضلا عما يرافق ذلك من تصوير دقيق، لمجالات من الحضارة العباسية، و ما حدث فيها من تناقض اجتماعي ،على الصعيد القومي و الطبقي و الوردي و الجماعي، حيث نجد الجشعين المستسلمين لشره، و المعارضين المنبسطين المحافظين على القيم الإنسانية، و في غضون ذلك تنكشف لنا نفسية الأشخاص المقدمين، تقديما مسرحيا فتعرف أمراضهم، و عيوبهم النفسية كالشح و الطمع و الحرص و الحسد و الجشع »1 .

و من خلال هذا القول يبين لنا الجاحظ طبائع المجتمع العباسي، و عاداتهم و التي تجلت في طريقة المأكل، و الملبس و طرق تفكيره بصورة عامة، و يمكن اختصاره في احد الصفات التي طغت على فئة من هذا المجتمع وهي صفة البخل، التي كشفها لنا الكاتب من خلال دراسته الدقيقة لنفسية الأشخاص و الأفراد.

المبحث الثاني : الباعث على تأليف هذا الكتاب :

إن الأدب انعكاس الحياة بشتى ألوانها ، لأنه تعبير عنها و لقد كان الجاحظ مفكرا ،اجتماعيا، يراقب و يبحث و ينقب، ويجرب ، و يدقق ، ويتحرى الحقائق ، ويخرج بنتائج ، وكان يخالط مختلف طبقات الناس ، ويدرس طبائعهم ، دراسة دقيقة ، تكشف لنا جانبا خفيا من عالمهم الباطني ، و تطلعنا على طرق تفكيرهم ،أساليب حياتهم و تصرفاتهم .

و انطلاقا من هذا ، نرى بأن دواعي التأليف ، تختلف ، حيث يرى بعض الدارسين «أن كتاب البخلاء ما وضع إلا لأن الجاحظ كان واحد من أولئك البخلاء ، و لذلك تمكن من

---

[1] البخلاء ، طه الحاجري المصدر السابق ص: 220

معرفة أحوالهم بدقة كاشفا حقائقهم ، كما هي بصدق ، و واقعية ».1
كما يمكننا أن نلخص ذلك كما يلي :

أولا : الحرص على تلبية رغبة قارئ ، أعجب بأحد كتبه في تصنيف حيل لصوص النهار ، و في تفصيل حيل سرّاق الليل ، و اسم هذا الكتاب : كتاب اللصوص و أراد أن ينتفع بنوادر البخلاء و احتجاج الأشحاء .

ثانيا : تعقد الحياة ، و كثرة مطالبها ، و تكالب الناس على المال ، إذ حاولوا الوصول إليه ، بشتى الوسائل ، و الحرص عليه إجلالا له ، و تقديرا لقيمته ، لأنه عندهم كالدواء ، يشفي من الداء و يجبر العظم الكسير ، من أجل هذا كله ، اقترن به البخل ، مما كان له أثره ، في تصوير الجاحظ للبخلاء .

ثالثا : الصراع الشعوبي الذي احتدم بين العرب ، و العجم ، و اتسع نطاقه حتى شمل ظاهرة البخل ، و الجود ، فقد كان دعاة الشعوبية يردون على العرب فخرهم ، التقليدي ، بالكرم ، و يقولون إلى أكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل ، و من أجل هذا يلجأ الجاحظ في كتابه ، في طريقة غير مباشرة ، إلى التصدي للشعوبيين الذين سعوا الى تجريد العرب من صفة الكرم ، فقد قال الجاحظ : " و العرب إذا وجدت رجلا من القبيلة قد أتى قبيحا ألزمت ذلك القبيح إليها "2

و من هنا نستنتج من خلال هاته الدوافع تأليف الجاحظ كتابه .

البخلاء : بأنه كان واقفا بكل عزم وقوة في وجه الشعوبيين و غيرهم من الأعاجم المشهورين ببخلهم و لا سيما منهم أهل مرو ، و خراسان ، و في هذا إعلاء للذات العربية ، التي تمجد الكرم و نرفع راية البذل و السخاء .

[1] رابح العوبي ،المرجع السابق ص: 197
[2] الجاحظ ، الحيوان ج1 ص: 40

المبحث الثالث : لمحة عن حياة الجاحظ :

1. تعريف الجاحظ:

" هـو عمـرو بن بحر بن محبوب الكناني(159ه 255ه) (755م 869م) ولد بالبصـرة ، لقـب بالجاحـظ لجحـوظ عينيه و كـني بابي عثمـان "[1]

" و يقال هو عمرو بن بحر بن محبوب و كنيته أبو عثمان ولقب بالجاحظ، و الحدقي لنتوء حدقتيه و الجاحظ كناني، و لكنهم اختلفوا فقل بعضهم كنانـي صليبتـه، من أهل البصـرة، و قال البعض الآخر كناني بالولاء و هو الأرجح و ذكر الياقوت أنه عمر أكثر من تسعين سنة و مات سنة 255 هجري في خلافة المعتز و في رأي المرزباني أنه ناطح المائة"[2]

"كان ذميم الهيئة ، قبيح المنظر ، مربوع القامة، جاحظ العينين ، كان الجاحظ صبيا ، تربى يتيما محاط بما يحرك نفسه و يثير حسه ، ويرهف مشاعره ، فقد ابتلي بقبح ينقر النفوس مـنه، و حالـت الأقـدار بينه و بين حنان أبيه فـذاق مرارة اليتيم و ذل البؤس و وطأة الفقر ، و معاناة القبح ، فنشأ بهذه المثبطات مرهف الطـبـع ، مشحـوذ المشاعـر مـتنبه المـدارك

- كناني بالولاء : ولاؤه يرجع إلى يموت بن المزرع ابن بنت أخته هو الذي أشد إليه الخبر بأنه من موالي عمرو بن قلع الكناني

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ البخلاء تحقيق د.محمد التونجي (ط)1 دار الجيل للنشر و الطباعة ص 5 - 6

[2] ياقوت الحموي معجم الأدباء الطبعة الأخيرة القاهرة مطبوعات دار المأمون بحوث تاريخ ص 2101

و القريحة ، دائم التطلع ، و التوثب العقلي ، و راح في عصامية نادرة ، يجمع بين العلم و العمل و لكن حرصه على الأول أكثر "[1]

لقد بدأ الجاحظ تعليمه من الكتاب في حيه ، حي بني كنانة و فيه اتصل بالوسط الخارجي و خالط المسجديين من أهل العلم و الأدب فأخذ عنهم وكان يكتري حوانيت الوراقين و يبيت فيها للمطالعة كما انصرف يجلس إلى علماء البصرة و يسمع من العرب الخلص المربد و بدأت نباهة الجاحظ في خلافة المأمون، و توجه إلى بغداد و اتصل بشيوخ العلم، و أئمة الأدب و علماء اللغة فقد كان الجاحظ، في موقف صعب بين كفالة عائليه بعد وفاة والده و بين مساره العلمي و هذا ما سنتطرق إليه في الجزء الذي يتعلق بحياته.

2. حياته:

"وهو على كل حال قريب فأكبر الظن أن الجاحظ فقد أباه صغيرا، فتولت أمه كفالته و لكن كفالة أمه الفقيرة ما كانت، لتعفيه من تحمل أعباء، الحياة فكان عليه إذن أن يعمل، و يجهد ليكسب أسباب هذه الحياة ،أو ليشارك على الأقل في كسبها، و هذا الفرض الذي نفرضه راجع إلى أن الجاحظ، رأى و هو يبيع الخبز و السمك بسيحان إحدى جهات البصرة"[2]

و هكذا أحاطت الأقدار أبا عثمان منذ مولده بتلك الأسباب التي جعلت تحرك نفسه و تثير حسه و ترهف مشاعره و تهيئه بذلك لمكانه المدخر له بحبه لم يكفه ذلك الحرمان حتى يرى الأقدار قد ابتلته بذلك القبح ما جعل الناس ينفرون منه.

[1] الجاحظ البخلاء كتاب نوادر البخلاء و احتجاج الأشقاء تحقيق د.عمر الطباع ص20 - 25

[1] بطرس البستاني أدباء العرب في الأعصر العباسية حياتهم آثارهم نقد آثارهم طبعه جديدة د.نظير عبود ص271

و بهذا لم يكن فقر الجاحظ ليعفيه من أن يمضي إلى الكتاب أو يعوقه عن أن يتلقى مبادئ القراءة و الكتابة في الكتاتيب التي كانت موجودة آنذاك تارة و أن يتقلب بين دكاكين الوراقين تارة أخرى.

فيهيئ بذلك نفسه للمجد الأدبي و الرفعة الاجتماعية ، "بحيث كان عليه أن يكدح في الحياة كدحا طويلا ، و أن يلتمس أسباب العيش لنفسه و لعائلته (أمه و أخته) و من عسى أن يكون معهم من أسرته ، و هكذا قضى الجاحظ أن تكون حياه في ذلك الدور مقسمة بين طلب العيش و طلب العلم ، و لكن هذا التقلب في أسباب العيش إذا كان قد أعاقه شيئا م عن إشباع رغبته من مجالس المريد و من حلقات المسجد" [1]، فإنه قد عوضه عن ذلك أبلغ العوض بما عرض عليه من مشاهد الحياة المختلفة و ما ثقف به بصيرته هذه الثقافة الخاصة التي كان لها أثر بليغ فيما صار إليه من منزلة في الأدب عالية واتجاه فيه فريد.

و من خلال تطرقي لقسط بسيط من حياة الجاحظ، أدركت أن الفضل في ذلك يعود إلى البيئات المختلفة التي جابها، و التي كونت شخصيته و لونت عقليته، ووجهته تلك الوجهة التي نراها في أدبه فأولى بيئاته البصرة التي تعتبر نقطة بداية لحياته.

" لقد كان للجاحظ علاقات وطيدة، و مهمة مع حكام و ملوك عصره ، كاتصاله بابن الزيات وزير الخليفة المعتصم فلازمه و قدم ل كتاب الحيوان فأعطاه خمسة آلاف دينار ، كذلك اتصاله بالقاضي محمد أحمد بن أبي دؤاد و قدم له كتاب البيان و التبيين".[2]

أحاط الجاحظ بطبائع البشر وقام برحلات إلى دمشق و أنطاكية و قيل إلى مصر فوسعت الرحلات أفاق ثقافته و اصطلاحه.

أصيب بداء الفالج و النقرص فترك بغداد إلى سامراء ثم رجع إلى البصرة يلزم منزله حتى مات و قد نيف على الثمانين.

---

[1] بطرس البستاني المرجع نفسه ص272

[2] الجاحظ البخلاء المرجع السابق ص30

3ـ شخصيته:

مهما كانت بشاعة الجاحظ، فلقد تمتع بطلاوة الحديث، و رطوبة الفكاهة و رقة الدعابة، و دقة الملاحظة، و الصراحة المطلقة، و التفاؤل العميق، ما جعله رجلا عزيزا غير مكروه، و محببا غير محتقر.

ـ " كان الجاحظ رجل علم ، و ثقافة واسعة ، باعتباره عمليا ، مثقفا و طموحا ، كما اتصف بشخصية فذة ، تميزت بقوة المنطق، و بالفضول العلمي ، و التعطش الفكري ، و كانت الفكاهة علامة فارقة فيه ، كما أن الدعابة نزعة متأصلة في روحه ، مجسدا إياها في النكتة و السخرية التي لم تفارق أدبه."[1]

ـ حرمته الطبيعة شكلا ، لائقا ، فقد كان قبيحا دميما، إلا أنه تمتع بعقل نير، و حس مرهف، و حضور للذهن دائم، و حبه للتهكم يطالعك في جميع مؤلفاته، حتى نفسه لم تسلم من ذلك ، يلتمس النكتة و يورها، و لو على نفسه يقول: " ما تركت النادرة و لو قتلتني الدنيا، و أدخلتني لنار في الآخرة."[2]

ـ كان يحب اللهو و المجون، و سماع القيان و المغنيين، و لكنه لم يبلغ الإباحية التي تفشت في عصره، و تميز بعقله الراجح و المنفتح على مجاري المعرفة من علماء الكلام، ومن شيوخ الاعتزال، أميرا من أمراء البيان.

4. أدبه (مؤلفاته): أشهر مؤلفاته:

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ البخلاء المرجع السابق ص 06

[2] الفاخوري حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي دار الجيل بيروت لبنان (دون طبعة) ص (551 - 552)

كتب الجاحظ نحو خمسين و مائة من الكتب المختلفة البحوث غير ما لم يصلنا خبره فحرم العالم ثمراته و طيباته، فلم يكن الجاحظ كغيره من الكتاب محصورا في حيز أو مقصورا على موضوع حيث ترك الجاحظ بصمته فـي كل موضوع من فلسفة، تاريـخ، جـــغرافية، و دين حيث كانت مؤلفاته عبارة عن موسوعة جمعت الثقافات القديمة و خاصة في العهد العباسي، باعتباره عصره الذهبي و من خلال بحثنا علمت أن أشهر مؤلفاته هي كالتالي:

1 - *الحيوان*:

"هو كتاب علم و تاريخ و أدب، كان الأول من نوعه عند العرب، يعود مصدر هذا الكتاب لأر يسطو، و أشعار العرب، و كتب علماء العرب في الحيوان بالإضافة إلى خبرة الجاحظ و تجاربه العلمية، إذ يعتبر هذا المؤلف موسوعة شاملة و صورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي في تشعب أغراضها ."[1]

- **قيمته :**

هـو أدب موضوعـه العـلم أسلوبـه علمـي أدبـي فيـه مـن العـلم تحـرّ، و إختـبار و شــك و مقارنــة و تحكيم للعقل و فيه من الأدب قصص و استطراد و جد و هزل و تشويق نزعته جاحظـية خفة روح واقعية دقة تخير الألفاظ، عبارة حية متوثبة قصيرة...

2. البخلاء:

"ألفـه الجاحـظ طلبـا للمنفعـة العامة بحيث كان الكتاب عبارة، عن خلاصة خبرة صاحبـه، و مجموعة معلوماته. و صورة لناحية البخل و الاقتصاد في مجتمعه ، منتهجا فيه سبيل القصص و الفكاهة و التهكم."[2]

- **قيمته :**

تجلــت في الدراسة العميقة لنفسيـة البخـلاء من خـلال أقوالهـم الحافلـة بالمعـارف الطبيــة و الاجتماعية، السيكولوجية، و الاقتصادية بالإضافة إلى مقدرته، العجيبة في التغلغل بين

---

[1] الحيوان ج1 المصدر السابق ص08

[2] الفاخوري حنا المرجع السابق ص554

طوايا النفس البشرية ، جامع بين النظر و التطبيق ، طغت عليه الروح المرحة و الفكهة و الحوار المسرحي.

3. البيـان و التبييـن :

هو كتاب الأدب وضعه الجاحظ، في أواخر أيامه، لتنشئة الكتاب على الأساليب القويمة و الصحيحة حيث أنه عالج فيه موضوع الخطابة و عيوب الخطيب، ثم تطرق إلى أنواع الدلالات ثم رد على الشعوبية، و أسهب في الكلام على البلاغة.

- قيمته :

يعتتد هذا الكتاب أولى المحاولات للتصنيف في علوم البلاغة، كما يعتبر مصدرا هاما من مصادر تاريخ الأدب العربي، لما فيه من نظرات هامة و قيمة في النقد الأدبي.

5. حداثة الجاحظ: تكوينه الفكري و الديني :

" يكاد تكوين الجاحظ يكون موسوعيا ، فإن رسالته المشهورة بالتربيع و التدوير والتي تعالج وفق عبارة كليمان هوار " مواضيع شتى لتعطينا برهانا على مدى اتساع معارفه و لم يكن يكفي الجاحظ ، كي يتوصل إلى قياس معرفته و اكتساب هذه المعرفة الواسعة العميقة ، بضع سنوات من الدراسة المنظمة تبعا لمنهج عقلي فحسب ، بل على النقيض فإن تكوينه الديني و الفكري قدامته طوال زمن يمكن تقديره بعد خروجه من الكتاب بربع قرن و قد حصل فيما بعد على ثقافة يونانية و عندها اعتبر دون ريب أن تكوينه العقلي قد بلغ درجة الكمال."[1]

---

[1] الجاحظ في البصرة و بغداد و سامرّاء ترجمة د. إبراهيم الكليماني (ط1) للطباعة و التوزيع و النشر بدمشق ص 108-109 .

" و لم يكتف الجاحظ في هذا الدور بالتردد على أوساط، معينة بغية التعمق في مادة اختارهــا بل لازم كـل المجامـع و حضـر جميـع الـدروس، و اشتـرك في مناقشات العلماء ، و أطال الوقوف في المربد ليستمع إلى كلام الأعراب ، و نضيف إلى جانب هذا التكويـن ، الذي لم يعد له طابع مدرسي محدود المحادثات التي جرت بينه و بين معاصريه و أساتذته حول مختلف المواضيع من جهة ، و قراءة الكتب التي حصل عليها من جهة أخرى."[1]

من خلال هذا المعطى و الذي يثبت لنا بواسطته اشتغال الجاحظ، على فكره و العمل على تطويره باغترافه من ثقافات متنوعة و معارف شتى و طموح مستمر ، فقد كان هذا العالم الكبير مواظبا على كتاب العلم و المعرفة من جميع المناحي ، و استغلال الفرص من معاصريه من العلماء و المفكرين و بهذا كون الجاحظ نفسه على أحسن مراتب العلم.

"روي عن الجاحظ عن أحد خصومه، من المعتزلة بأنه كان في حداثـته مشتغـلا بالعلـم، و أمه تقوم بأوده، فجاءته يوما بطبق كراريس فقال ما هذا؟ قالت : هذا الذي تجيء به. فخرج مغتما و جلس في الجامع رآه مويس بن عمران فحدثه و أدخله المنزل فأطعمه و أعطاه خمسين دينارا دخل بها إلى السوق، و اشترى الدقيق و غيره و حمله الحاملون إلى داره ، أنكرت الأم ذلك و قالت من أين لك هذا؟ قال من الكراريس التي قدمتها إلي."[2]

و نستنتج من هذه الحكاية أن أمه التي تجيد أحيانا التهكم لم تكن راضية عن اتجاه ابنها نحو الدرس و ذلك قبيل أن يضمن عيش أسرته بالإضافة إلى ذلك طلاب تلك المرحلة كانوا يعتمدون على مواردهم الخاصة لطلب العلم و التعلم أو على هبـات أنصـار العلـم و الأدب خاصة الخلفاء و الأمراء في تلك الفترة كانـوا يشجعـون أهـل العلـم بكـم مـا أتـوا مـن قـوة و ماعـدات ماليــة كانـت أو ماديـة.

" و قد عرف الجاحظ بميله للمطالعة و التنقيب في الكتب ليتم معلوماته الشفهية بالرغم من وضعه المادي المـزري بحـيث أن تلـك الفتـرة (ق ح ه) لـم تكـن هنـاك مكتبـات عامـة بـل

[1] الجاحظ البيان و التبيين (ج1) القاهرة مطبعة الاستقامة ص109-110 .
[2] الجاحظ البيان و التبيين المرجع نفسه ص111 .

و الكتب نادرة و غالية الثمن بحيث أن موارد الجاحظ لا تجيز له شراءها و يحق لنا أن نصدق الأخبار القائلة أنه كان يكتري دكاكين الوراقين فيبيت فيها للقراءة."[1]

ـ و هناك عامل آخر هو أصدقاؤه و أساتذته الذين كانوا يضعون مكتباتهم الخاصة تحت تصرفه بالإضافة إلى سفره الدائم لطلب العلم.

ـ و على الأغلب أن الجاحظ قد أشبع رغبته بمطالعة الكتب المترجمة عن الفارسية بالرغم من قلتها و لكنها كافية لإعطائه معلومات عامة عن تاريخ الفرس ، كما أن الجاحظ مدين باستثنـــاء مطالعتـه إلى أساتــذة البصريين و علماء تلك الفترة في أواخر القرن الثانـــي و المروى أن الجاحظ لم ينقطع عن حضور حلقاتهم و محاضراتهم نذكر منهم: أبي يوسف يعقـوب بن إبراهيم القاضي و الذي درس على يده الجاحظ الحديث، و يزيد بن هـــارون، و السري بن عبدويه ، و الحجاج بن محمد بن حماد بن سلعة.

بالإضافة إلى تمامه بن الأشرس و الذي لازمه الجاحظ في بغداد كما أخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش و غيرهم من العلماء.

و قد اعتنق الجاحظ مذهب الاعتزال دفعة واحدة حيث كان يشعر دوما بدور الاعتزال التحرري و حيويته في محاربة الإلحاد الناشئ في قلب الإسلام من جهة و التأثيرات الإيرانية من جهة أخرى.

و فــي مقــام آخر يقول المرزباني "... و له كتب كثيرة مشهورة جليلة ، في نصرة الديــن و في حكاية مذهب المخالفين ثم يقول و إذ تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول و شحذ الأذهان و معرفة أصول الكلام و جواهره و إيصال خلاف الإســلام و مذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها."[2]

و انطلاقا من هذا القول تبين لنا أن الجاحظ سلك مسلكا دينيا معزليا محض مدفعه إلى تأليف عدة كتب تختص في الدين و مذاهب الاعتزال لما فيها من فوائد دينية و حجج قاطعة من بينها:

---

[1] الحيوان ج 1 ص19

[2] الدكتور طه الحاجري الجاحظ حياته و آثاره (ط2) دار المعارف بمصر ص173 - 326 .

كتاب مسائل القرآن و حجج النبوة و كتاب نظم القرآن و غيرها من الكتب الثرية في هذا المجال.

1. ثقافته:

" و ثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره فهو عالم من علماء الدين و متكلم من الطراز الأول للمتكلمين و عالم يحيط باللغة و بيانها و آدابها إحاطة لا تقف عند غاية ، و قد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى ، التي سارت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق (ق 12 ه) و لا شك أن عصر الجاحظ، و عقليته و شغفه بالدراسة و البحث، و عكوفه على القراءة. و نشأته بالبصرة، و تلقيه اللغة عن الإعراب و المربد و العلماء في حلقات البصرة و مجامعها العلمية و تلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها ، أمثال أبي يوسف القاضي ، الأصمعي و الأخفش و ابن الأعرابي و غيرهم من علماء عصره ، كان له أثره

البارز في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب و المتعددة الألوان ."[1]

و نلحظ من جهة أخرى الثقافة الواسعة الأمد للجاحظ من خلال " اتصاله باليونان و ثقافتهم من كتبهم المترجمة و بمجالسته لكثير من المثقفين اليونانيين ، كما أنه حدق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع و سواه، فقد كان موسوعيا بقراءته للكتب و تأثره بخطابة أرسطو إلى حد بعيد."[2]

و من البديهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا فكانت معرفته للغة الفارسية واضحة فمن خلال كتاب البخلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلدك لم أعرفك.

---

[1] محمد خفاجي الحياة الأدبية في العصر العباسي (ط1) (ص312 - 313 - 317) .

[2] محمد خفاجي المرجع نفسه ص 318 .

قال الجاحظ و ترجمة هذا الكلام بالفارسية " كراز بوسنت بارون ببائي نشاسيم..."[1]
و أثر ثقافته الفارسية واضع في كتبه و في مؤلفه " البيان و التبيين" بالإضافة إلى هذا نجد أن الجاحظ قد تطرق إلى كتب أرسطو المترجمة ككتاب الحيوان و استدل برأي أرسطو فيه و كان مصدرا كبيرا له في هذا الكتاب و من هنا نستطيع القول بأن ثقافة الجاحظ كانت مطلقة إلى أبعد الحدود.

[1] محمد خفاجي المرجع نفسه ص 320 .

الفصـــل الثانـــي :

مفهوم البخل و جماليات القصة لدى الجاحظ

المبحث الأول : مفهوم البخل

«لا شك أن مفهوم البخل لدى الجاحظ جزء من مفهوم عصره فأي أديب هو ابن بيئته و مفاهيمها لكنه يمتاز عن غيره بقدرته الفنية على تقديم صورة أمينة لدقائق عصره ، حيث نجد الجاحظ منذ فاتحة كتابه حين خاطب شخصا واقعيا او متخيلا كان قد طلب منه تأليف كتاب البخلاء و نوادرهم يبين انه سيختصر قصصهم كي يصير الكتاب اقصر و العار فيه اقل»[1]

«إذ البخل صفة منبوذة تجلب العار للإنسان كما يجلب العار للكتاب الذي يتناول قصص البخلاء أيضا لكننا لاحظنا الجاحظ ألمعتزلي الذي يمتلك عقل باحث يتناول مفهوم البخل برؤية علمية فيرفض التعميم أي إطلاق صفة البخل على أي إنسان دون النظر إلى المعيشية فأهل المارج مثلا هم قرية قرب الرقة ، لا يعرفون بالبخل و لكنهم أسوأ الناس حالا فتقديرهم على قدر عيشهم و إنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل و اليسر و بين خصيب البلاد و عش أهل الجدب أما من يضيف على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم »[2]

إذا مفهوم البخل لدى الجاحظ مفهوم موضوعي ، يخص به الأغنياء دون الفقراء و سكان الأراضي الخصبة لا المجدية ، الآن الإنسان محكوم بعطاء البيئة التي يعيش فيها أو بخلها و لهذا لا عذر لبخيل يعيش في ارض معطاءة في حين يجد العذر لإنسان يعيش في بيئة فقيرة .

«و كذلك بدا لنا مفهوم البخل في قصصه اقرب إلى الواقعية و لا يحاول أن يأتي بقصها من فيه للعقل فإذا ذكر أحداها أشار إلى عدم منطقيتها مثلا حين تحدث عن بخيل يمسح خبره بقطعة جبن فجاد ابنه ليضع قطعة الجبن بعيدا و يشير إليها باللقمة من بعيد ».

[1] بتصرف د.شوقي ضيف العصر العباسي الثاني دار المعارف بمصر ط2 1972 ص:586

[2] الجاحظ (البخلاء) أحمد العوامري و علي الجارم المصدر السابق ص: 45

فهنا الجاحظ يرفض المبالغة و يعلق قائلا: لا يعجبني هذا لان الإفراط لا غاية له و إنما نحكي هذه ما كان في الناس و ما يجوز أن يكون منهم مثله حجة أو طريقه ' فإما مثل هذا الحرف أي الإشارة إلى اللقمة فليس مما نذكره » 1

« إن الجاحظ في كتاب البخلاء يمتلك حس الكاتب الواقعي الذي ليسعى إلى المبالغة و الابتعاد عن المعقول من القصص ، و إنما يقدم للمتلقي ما حدث فعلا و ما يمكن أن يحدث فهو يلجأ إلى أساليب أخرى أكثر فنية لجذبه و هنا يلاحظ المتتبع لقصص بخلاء الجاحظ التنوع في أسلوب تقديمها بين القصة القصيرة (بالمفهوم المعاصر) و النادرة ة الفائدة اللغوية و الشعرية ، كما يلاحظ وجود قصص لا يمكن أن نعدها قصص عن البخل حسب مفاهيم عصرنا الحديث مما انعكس على السمات الشخصية لبخلاء الجاحظ و سلوكهم فتميزوا أحيانا بسمات محببة ، لذا لا نستطيع أن نلحق بهم دلالات مكروهة لهذه الصفة وفق مفاهيمنا اليوم ، نظرا لتصرفاتهم التي لا تدل على البخل و الأنانية دائما فالبخيل لدى الجاحظ يقيم الولائم في بيته ، و إن كان يشترط شروطا ،و كذا يقدم هدايا و هو صاحب أنفة و كبرياء يرفض أن يستعيد ماله إذا حاول أحدهم أهانته ووصفه بالبخل كقصة لأبي سعد ألمدائني » 2

و من خلال هذا القول يحاول الجاحظ وضع مبررات لبخلائه و سبب بخلهم ، كان يشترط على ضيوفه بعض الشروط التي يراها من آداب الطعام و هي بالتالي في صالح الضيوف ، أولا يهتم بنظافته كي لا تبلى ثيابه ، أو يكثر الحديث عن هدية قدمها حتى نجده يؤرخ الأحداث بيوم تقديمها ، و هنا لانكر دور الجاحظ في اسباغ حس الفكاهة و المرح على الحدث

المبحث الثاني : جماليات القصة في كتاب البخلاء

---

[1] المصدر نفسه ص: 47

[2] البخلاء ، عباس عبد الساتر ، المصدر السابق ص: 50

" شكل الفضاء المنفتح الذي يمتد من أماكن عايشها الجاحظ البصرة ، بغداد إلى أماكن قريبة زارها ، أو التقى بسكانها (بلاد فارس) حين يأتون للحواضر العربية من أجل الاستقرار فيها أو من أجل التجارة و العلم .

لقد أبرز الجاحظ كما أشرنا سابقا علاقة البخيل سواء أكان عربيا أم أعجميا بالبيئة ، ففرق بين البخل الذي هو صفة تلازم من يملك الأرض الخصبة التي تدر عليه الغلال ، و بين المعدم الذي يملك الأرض القاحلة فيعيش وفق ظروف بيئته عيشة مقترة "1

و يمكننا أن نعد قصص البخلاء صورة حية للبيئة لم تكتف بتقديم التفاصيل المتعلقة بالحياة المادية بما تفي من طعام و شراب ...الخ و إنما تفاصيل تتعلق أيضا بالحياة الروحية فبدت الآيات القرآنية و الأحاديث الشريفة و أقوال الصحابة و الصالحين الزاهدين تشكل وجدان الناس في ذلك العصر و تصهر الشخصية أيا كان انتماؤها العرقي ، فقد شكلت جزءا من قناعاته ، و حواره مع الآخر لهذا يمكننا أن نعد الثقافة الدينية و المعتزلية سمة من سمات بخلاء الجاحظ الذين كانوا يجسدون ثقافة العصر أي ثقافة الجاحظ ، لهذا أنطق الفارسي لغة المنطق حين تحدث عن أسباب أكله بعيدا عن الناس ، فيقول أكلي وحدي هو الأصل و هذا بتأثير الترجمة عن اليونانية التي اطلع عليها الجاحظ .

2/ رسم الشخصية

"نجد في كتاب البخلاء ملامح القصة القصيرة و لعل أهمها تصوير الشخصية بأبعادها الجسدية و الفكرية التي لاحظناها كما لاحظنا أيضا عناية الجاحظ بتصوير أبعاد الشخصية النفسية تصويرا دقيقا فمثلا : لاحظ أصدقاء الفارسي (أبي سعيد ألمدائني)اتساخ ملابسه فيسألونه لم لا يأمر بغسلها ، فيبين لهم محاسن غسله ثم مدى الخسارة التي ستلحق به لو أمر بتنظيفه سيخسر المادة المنظفة و الماء سيبلل القماش ’ و ستجوع الجارية التي تغسل فتأكل طعاما أكثر .....و لهذا تحول الثياب إلى قضية فكرية يناقشها من جانبيها (الوساخة و النظافة) »2

---

[1] الجاحظ البخلاء ،ج1 ،المصدر السابق ،ص: 94

[2] أحمد بن محمد أمبيريك: صورة بخيل الجاحظ الفنية ،الدار التونسية للنشر ط1 1985 ص: 66

- و مثل هذا الانتصار للقضية و نقيضها قد تكون سمة فكرية تمنع بها الجاحظ و كثير من شقفي عصره ، و العصور اللاحقة ، و لكنها من جانب أخر توضح لنا الصراع الداخلي الذي يظطرم في أعماق الشخصية بين النظافة التي ركز عليها الدين الإسلامي ، و باتت مظهرا اجتماعيا لا غنى عنه خاصة لمن يريد أن يطالب بالدين و بين القذارة التي تنسجم و حالة التقتير التي يعيشها الإنسان البخيل و يتخذها أسلوبا لحياته و يحسم هذا الصراع لدى ’(أبي سعيد ألمدائني)

بحل توفيقي بين النظافة و المظهر الاجتماعي و إرضاء ذاته التي تدعوه لإهمال نظافته فمن اجل أن يحافظ على سرواله و نعله يلبسهما حين يصل ويخلعها حين يخرج '

و من هذا نلاحظ أن الجاحظ يلتقط مشهدا حيويا في حياة البخيل فيصور لنا علاقته الحميمة مع الأشياء إذ يحيطها الحرص ترفعها من منزلة دنيا إلى منزلة عليا النعل أصبح في اليد لا في القدمين كما هو معتاد

3/ المزح و الهزل:

«لقد برزت في قصص البخلاء روح الجاحظ المرحة و لمسنا اهتمامه بسيكولوجية الضحك ، فالمرء يزداد كرما في حالة السرور و لجذب المتلقي إلى متابعة كتبه دون أن يشعر بالملل و وجدناه يبحث عن الطرفة كي يرويها و لو كانت عن نفسه فيخلق جوا مرحا مما منح قصصه جمالية متميزة ، تقوم على الوصف الدقيق المرح للشخصية و للحدث كما تقوم على السخرية ، و المواقف المتناقضة التي تبرز عبر الأوصاف الغرائبية المدهشة مما يتيح الحيوية و المرح على وصفه فلحزامي يقاف العطاء و يجب الأخذ حتى لو أعطي أفاعي سجستان و ثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها ».1

إذا العفى من هذا القول ان معظم قصص البخلاء للجاحظ تحمل في طياتها روح مرحة قاصدا ذلك لجذب القارئ و ترغيبه على القراءة دون الشعور بالملل أو الضجر كما نجد ان البخيل يحب لغة الأخذ حتى لو كان اخذ ثعبان يحمل له الموت و ما أضاف إلى جمالية الوصف المبالغة المرحة التي تجمع أفاعي سجستان إلى ثعابين مصر إلى حيات الأهواز.

المرجع نفسه ص: 67[1]

«تبدو لنا اللغة إحدى الجماليات الأساسية في بخلاء الجاحظ ، و قد لاحظنا سابقا تنوعها و دقتها في تصوير تفاصيل الحياة اليومية للبخلاء و تصوير أعماق أنفسهم فبدت لنا أحيانا مفردة واحدة قادرة على تجسيد حالة نفسية أو صراعا داخليا كلفظة (تنثير او تنتيف) فمثل هذه اللفظة تجسد مجموعة حركات عصبية لتعلن توتر الشخصية و ثمة ميزة أخرى للغة الجاحظ و هي اعتماد اللغة المرحة التي تبرز لنا عبر المبالغة أو التناقض ، أحوال البخلاء و كما يقول الأستاذ احمد امبيريك يمتلك الجاحظ حاسة مجهية تمنحه القدرة على المقارنة بين الأشياء مما يجعل البخيل حساسا لأبسط الأشياء يبحث عن المنفعة بكل مهمل لدى الآخرين لذا اعتمدت قصصه على لغة الحوار فيلجأ إلى اللغة المقارنة بين حالتي البخل و الكرم أو بين الإقدام و العزوف »[1].

إذا إلى جانب كل هذا نجد الجاحظ قد قدم لنا بخلاءه عبر لغة متميزة في مجازاتها فمثلا : البخيل إذا أتاه زائر بعد أن أنهى و ضيوفه الطعام يقول له :«أجهز على الجرحى و لا تتعرض للأصحاء أي كل مما فضل عن الضيوف و اترك السليم الذي لم تمتد الأيدي إليه.

5/ الحوار

«إلى جانب السرد القصصي برز الحوار الذي أضفى حيوية على فضاء القصبة كما منحها بعدا واقيا ، بفضله كان على صلة بالبنية الفكرية و السلوكية فيبرز ذكاء و حسن تصرفها كما يبرز ثقافتها الواسعة التي هي صورة لثقافة الجاحظ المعتزلي الذي يعلى من شان المناظرة العقلية و يرى فيها إحدى و سائل الدفاع عن وجهة نظره الفكرية لذلك اعتمد بخيل الجاحظ على الحوار للدفاع عن وجهة نظره التي يؤسس عليها حياته و سلوكه لذا يمكننا أن نعد المشهد الحواري جزءا أساسيا من البنية الجمالية للقصة لديه فمثلا ابن حالوية المكدي عاد إلى البيت بعد دفنه فوجد جرة خضراء معلقة فسال عنها و ما يوضع فيها قالوا ليس اليوم شيء و لكن من قبل كانت للسمن و كنا في الشتاء تلقى له في البرمة شيئا من

---

[1] د ماجدة حمود :صورة الاخر في التراث العربي الدار العربية للعلوم ناشرون ص: 30

الدقيق قال و الله لولا أن للجرة ثمنا لما كسرتها إلا على قبره قالوا : نفرج فوق أبيه و ما كنا نظن أن فوقه مزيدا »1

من الواضح أن الحوار يحور بين البخيل و لهل بيته و قد شكل صلب القصة في كأننا أمام مشهد مسرحي ، فالبخل الذي تلقى دروس البخل من والده يستفهم عن كل ما تركه والده من متاع ، فيفاجأ بان والده كان مبذرا ، و هذا مبرزا تناقض شخصيته إذ يقول ما لا يفعل ، لذا يحق للابن أن يتجاوز تعاليمه فيبدو لنا أكثر صرامة و بخلا.

كما أسهم في حيويته الحوار اعتماد الجاحظ على لغة الحياة اليومية فوجدناه يستخدم اللغة الشعبية التي يتخللها مفردات فارسية.

المبحث الثالث: أسلوب الجاحظ من خلال كتاب البخلاء

« و أسلوب الجاحظ يتجلى في قدرته الفائقة على عرض ثقافات عصره في صورة ممتعة تستريح إليها النفس و يقبل عليها الإنسان بالقراءة و ذلك : لأنه جمع بين مقومات الكاتب المكتمل الأدوات في أسلوبه و موضوعاته التي يطرحها فتراه يعرض ما لديه في صورة القصص تارة و الاستطراد أخرى و الواقعية التي تميل اليها النفس و هو يمزج ذلك

---

[1] د. ماجدة حمود المرجع السابق ص: . 31

كله بالفكاهة و المداعبة في أسلوب كاتب خبير بطباع الناس عليهم باحوال النفس الانسانية و ما يستهويها من ضروب الأداء »[1]

و بالإضافة إلى هذا هو مروض للعقول معلم للفكر ذلك ما يستهوي القارئ إلى مؤلفاته و يشده اليها لما فيها من مزج و مزاجية بين البكاء و الضحك و غيرها من المتضادات و في الحقيقة إن أسلوب الجاحظ ننظر إليه من زوايا ثلاث و هي علاج الفكرة الواحدة من الناحية النفسية و العقلية و الناحية الصوتية و من بين ميزات أسلوب ما يلي :

ا- " إن الجاحظ يستهل بالبسملة و يرد فها على الغالب بالحمدلة و التعوذ كما فعل في "البيان و التبيين " و بمقدمة دعائية كقوله في كتاب الحيوان :" جنبك الله الشبهة و عصمك من الحيرة....." [2]

ب- الألفاظ :فإذا ما انتهينا إلى ألفاظه و تراكيبه راعنا ما حظى به من قدرة على اختيار الألفاظ المتماثلة في الجرس و قدرة على تقسيم الفواصل المنقطة الأواخر في الوزن مع مهارة في تقلب العبارة و الجمع بين الأضداد ككتاب "البخلاء" مثلا فانه يحتج مرة للسخي و يحتج مرة للبخل كرسالة أبي العاص إلى الثقفي في ذم البخل .

ج- المعاني : إن سعة ثقافة الجاحظ و كثرة تجاربه و طول اختلاطه بالناس اكسبه غزارة في المعاني و دقة ووضوحا و إحاطة بالموضوع و لم يكن أبو عثمان يجهل ما للألفاظ من احتياجات للمعاني من شرف ليكون توافق و تلازم بين اللفظة و معناها وقد قال في هذا الصدد **:** " ان لكل معنى شريف او وضيع هزل او جد حرفة او صناعة ضربا من اللفظ هو حقه و نصيبه الذي لا ينبغي ان يتجاوزه او يقصر دونه"[3].

وفي هذا ما يدل على شدة عنايته بالألفاظ و معانيها و كان الجاحظ خير مثل لقوة التعبير عن المعاني في جلاء ووضوح .

د- التكرار : لم يكن التكرار في الأسلوب عبثا بل هو لطبقة من الطائف البخلاء التي اخذ بها الجاحظ و مثلها في جل مؤلفاته فلقد كان التكرار ذا قصد فني و نزعة أدبية و على

---

[1] حامد حفني : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ط2 1993 ص: 93

[2] بطرس البستاني : المرجع السابق ص 278 .

[3] شوقي ضيف : الفن و مذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف مصر 2000 ص :146 .

سبيل المثال قصة محمد بن ابي المؤمل " ولو ان رجلا جلس على بيدر تمر خائق و على كدس كمثرى منحوت و على مئة قنو موز موصوف لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه و لم يكن أكله على قدر أكله إذا أتى بذلك في طبق نظيف عليه منديل نظيف" [1].

ومن هنا نلاحظ إن التكرار في لفظة "نظيف" و لفظة أكلة "قد أتى به الجاحظ ليزيد به المعنى وضوحا و الأسلوب جمالا وروعة .

هـ - الدعابة : و في مقدمة كتابه "البخلاء" نراه يقول " و لك في هذا الالكتاب ثلاثة أشياء تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة او استفادة نادرة عجيبة و أنت في ضحك منه ، اذ شئت و في لهو إذا مللت الجد و لو كان الضحك قبيحا من الضاحك و قبيحا من المضحك لما قيل للزهرة و الحبرة و الحلي و القصر العيني :كأنه يضحك ضحكا"[2]

و قد قال الله جل و علا : "و انه هو اضحك و ابكي و انه هو أمات و أحيا "[3]

فوضح الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت و انه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح و لا يمن على خلقه بالنقص هذا و لان الضحك أول خير يقهر من الصبي و به تطيب نفسه و عليه يثبت شخص و يكثر دمه الذي هو علة سروره و لفضل خصال الضحك عند العرب تسلي ابنها بالضحاك و بسام و إذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن بسام العشيات و إذا ذموا قالوا هو عبوس و هو كالح و مقبض الوجه .

و للضحك موضع و له مقدار و للفرح موضع وله مقدار هي جاوزها امد و قصر عنهما احد صار الفاضل خطط و التقصير نقصا

و السخر عند الجاحظ طبيعي لا يتكلفه تكلفا فالنكتة أبدا على لسانه و التهكم حشو ألفاظه فلذلك كثر هزله في مواضع الجد فلا يلبث إن يفاجئك بالنادرة الظريفة فيضحك و يزيل سأمك و قلما خلى كتاب له من المضاحك و للمهازل فهو من أولئك الذين يرون الدنيا ضاحكة إذا ضحكوا لها و كان يعتذر من خروجه إلى الفرح بعد الجد بقوله " و إن كنا قد

شوقي ضيف المرجع السابق ص:146 .[1]

بطرس البستاني المرجع السابق ص: 280.[2]

الاية 43 من سورة النجم . [3]

امللناك الجد و بالاحتجاجات الصحيحة الممزوجة لتكثر الخواطر و تتقد العقول فستنشطك ببعض البطلات و بذكر العلل الظريفة و الاحتجاجات الغريبة "[1].

و تهكم الجاحظ لطيف ناعم و ربما جاء به ذما في قالب المدح دون إن ينبغض فيه و هو كثير السخر بالخرافات و الحماقات و الأحاديث الكاذبة و كتاب الحيوان و البخلاء حافلا بسخره و تندره .

و- أبو عثمان : كثير الاستشهاد بالآيات الكريمة و الأحاديث الشريفة و الإشعار و الأمثال ما يدل على سعة اطلاعه .

ز- إنشاء الجاحظ : يسيل طبعا ورقة بعيد من التكلف لا يلتزم له سجعا و لا يعتمد استعارة أو تشبيها و قلما نمق إلا في بعض رسائله و مقدمات كتبه و هو ابعد الكتاب من العجاز و التزيين لا يفي إلا بإيضاح المعنى في اللفظ السهل الفصيح .

ح- و كان على استبحاره في اللغة: حرصه على البيان الصحيح يحصد خطة ربما لا يوافقه عليها جمهور النحاة و هي انه إذا روى نادرة من نوادر عامة المولدين لا يتكلف لها الإعراب بل يثبتها بكلام ملحون كما وردت على لسان صاحبها و قد صرح في "البخلاء " " و إن وجدتم في هذا الكتاب لحنا و كلاما غير معرب او لفظا معدولا عن جهته فاعلموا ان تركنا ذلك لان الإعراب يبغض هذا الباب و يخرجه عن حده إلا إن احكي من كلام متفافلي البخلاء و أشحاء العلماء كسهل بن هارون و أشبابه "[2].

ط - و جملة الجاحظ: قصيرة على الغالب واضمة المعنى و قد تطول إلى تطلبها سباق الكلام فتمتد و تتسع دون إن يعتريها غموض و لا انقطاع لا تتلافها مع الجمل المتداخلة فيها ثم لمشاركتها إياها في التنازل على الغموض الواحد .

ي- و الجاحظ كغيره من الكتاب المتقدمين: يفرط في استعمال فعل القول إذا حدث عن غيره حتى لا تكاد تخص صفحة إلا و فيها طائفة من قال و ما يشتق منه و ربما وردت هذه الأفعال متتابعة متجاورة فيثقل وقعها في السمع كقوله في "البخلاء" قال "فما قال ابو الفاتك"

قال :" قال أبو الفاتك " و كغيره من المتقدمين

---

[1] بطرس البستاني المرجع السابق ص: 27

البخلاء العوامري و الجارم المصدر السابق ص :99 . [2]

"لا يسلم انتاؤه من التباس الضمائر حتى لتضطر إن تستوضح المعنى في شيء من الجهد و لا تستخلص إلا إذا نظرت إلى ما قبله و إلى ما بعده من كلام يدل عليه و مع ذلك فأسلوبه أوضح الأساليب القديمة و أكثرها طلاوة و أحسنها رواءا"[1].

و ما يمكن استخلاص من دراسة أسلوب الجاحظ هو انك لا تستطيع إن تعرف أسلوبه على حقيقته إلا إذا نظرت إليه من هذه الزوايا الثلاث و هي علاج الفكرة الواحدة من الناحية النفسية و الناحية العقلية و الناحية الصوتية ، و لهذا قالوا ان كلام الجاحظ يعلم العقل.

---

[1] الجاحظ البخلاء المصدر السابق ص: 156.

الفصـــــل الثالـــــث:

جانـــب التطبيقـــي

الفصل الثالث : تقاطع الأدب العربي و الفارسي

مدخل الى الفصل التطبيقي

مفهوم الصورة لغة " تصورت الشئ توهمت صورته فتصور لي التصاوير التماثيل وفي الحديث" أتاني الليلة ربي في أحسن صورة - قال إبن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب علي ظاهرها وعلى حقيقة الشئ وهيئته وعلى معنى صفته ويقال صورة الفعل كذا أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته فيكون المراد بما جاء في الحديث أنه أتاه في أحسن صفته " [1]

وفي التنزيل " هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا ألاه إلا هو العزيز الحكيم" [2]

الصورة كلفة عربية قديمة الظهور في أدبنا العربي وهي معرفة لا يمكن حذف أحد لأنها أصيلة وماضيها صور ومضارعها يصور مشتقة من المصدر تصوير وتجمع على ثلاثة أشكال هي (صورا –صورا-صور ا).

والصورة لغة : تعني الشكل لقوله تعالى " في إي صورة ما شاء ركبك" [3]

" وتكتسب كلفة الصورة في العربية معاني أخرى قريبة من الشكل حسب السياق الذي ترد فيه فيمكن أن ترادف صفة أو هيئة أو خيال أو حقيقة أما التصوير فهو إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني فالتصور إذا عقلي أما التصوير فهو شكلي وإن التصور هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر وفقط " [4]

وجاءت الصورة مشتقة من اللاتينية Image وهي تمثيل داخلي مستنبط ن لموضوع غائب مدرك قبلا أو مصاغا من قبل الذهن.

تعريف الصوراتية

---

[1] ابن منظور ، لسان العرب دار صادر بيروت طبعة جديد مجلد 7 ص: 303 -304 .
[2] القرآن الكريم ، سورة ال عمران الاية 6 .
[3] القران الكريم ، سورة انفطار الاية 8 .
[4] مذكرة ماستر صورة العربي في المتخيل السردي الغربي الغريب البير كامو .

بدأ الاهتمام في العقود الأخيرة بأحد فروع الأدب المقارن ن، وهو علم دراسة الصورة الأدبية أو (الصورة ولوجيا Imogologie) وقد شهد هذا العلم ازدهارا ملحوظا بسبب مناخ التعايش السلمي الذي بدأ يظهر لدى أغلب الدول وقد لوحظ أن الصور التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول والثقافات سواء كان هذا إيجابيا أم سلبيا ونعني بالسلبي هو ذللك النوع الناجم عن الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى...

" إن كل صورة لا بد أن تنشأ عن وعي مهما كان صغيرا بالأنا مقابل ألأخر وهي تعبير أدبي يشير إلى تباعد ذي دلالة بين نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين وبذلك تكون الصورة التي هي جزء من التاريخ بالمعنى الوقائعي والسياسي جزءا من الخيال الاجتماعي ، والفضاء الثقافي أو الأيدلوجي الذي تقع ضمنه فيتضح لنا أن الهوية القومية تقف مقابل ألأخرى الذي قد يكون مناقضا للأنا أو مكملا لها تبعا للعلاقة التاريخية التي نشأت بينهما"[1].

ومن المعروف أن الصورة لغة : تختلط فيها المشاعر بالأفكار وهي ترجع إلى واقع ترسمه وتدل علي ولكن المشكلة كيف نظهر منطقة الصورة وليس كذبها لذلك بحد علم دراسة الصورة جزءا من تاريخ الأفكار والثقافات التي تنشأ في بلد واحد ، أو عدة بلدان وعن طريق الأخر نظهر لتفكير مختلف يعني ثقافاتنا.

"ر كثيؤا مايكون التعبير عن الأخر نفيا له " إذ تدرس الصورة وفقا لأفكار مسبقة وتصبح تعبيرا عن الذات وعن العالم الذي يحيط بنا كما نراه وليس كما هو حقيقة بمعزل

---

[1] ابن منظور ، مصدر السابق ص :305 .

عن الأوهام التي تورث رؤية متعصبة ولذلك تبدو صورة الأخر صورة للعلاقات التي تقيمها بين العالم (الفضاء الأجنبي) وبيننا فتبدو لغة الأخر لغة ثانية موازية للغة التي أتكلمها قد تتعايش معها وتقيمه، من أجل إضافة شئ جديد، وخوله بشكل مختلف، وقد تنفيه لتعيش في عزلة ثقافية تؤسسها لأفكار موهومة" [1]

المبحث الاول : تأثير الأدب العربي في الأدب الفارسي :

"بعد الفتوحات الإسلامية العربية لإيران و دخول معظم الشعب الفارسي لبلاد فارس ودخول معظم الشعب الشعب الفارسي الإسلام زالت الحواجز بين الشعبين وحدث ما يسمى

[1] احمد بن محمد امبيريك مرجع السابق ص: 70 .

بالتداخل فيما بينهما في جميع المجالات سواء كانت سياسية او تجارية أو أدبية خاصة فكان هناك إقبال كبير على تعلم اللغة العربية و العكس صحيح"[1]

كما يظهر هذا التأثير في المؤلفات الفارسية و العربية و الترجمة حيث ترجم كتاب التاريخ و التفسيـر للطبـــري و كذلك كتــاب الطب و الفلسفة للرازي و حمزة الأصفهاني في التاريخ و هنا بدا الأدب بداية قوية بظهور شعراء فارسين أمثال الرودكي الذي كان لألحانه صدى بعيد في نفوس الفرس و كذلك ألمسجدي و منوجهري و غيرهم و نجد أيضا من ناحيــة الكتـــب إن كتـاب كليلـة و دمنـة يعد مـن بيــن الكتـــب التي قربــت بين الأدبيــن العربـــي و الفارسي في الوقت الذي احدث فيهما حركة فنية و فكرية و كان ابن المقفع قد ترجمه عن الفارسية القديمة الفهلوية التي نقل إليها من اللغة الهندية .

"و لما ضاع الأمل الفارسي و الهندي صارت الترجمة العربية أصلا و لا سيما أن ابن المقفع أضاف إليها بعض الأبواب و أشهر من ترجمها بعد ذلك إلى الفارسية هو أبو المعالي نصر الله سنة (539ه) و لم تقتصر العلاقة بين الأدبين على الأدب القديم و إنما امتدت إلى الأدب العربي الحديث و كان أنوار سهيلي قد ترجم كليلة و دمنة الى الفارسية "[2] كما نجد أيضا رباعيات عمر الخيام و ما أرسته من قواسم مشتركة بين الأدبين فنا و أسلوبا فكرا و نقدا يدفعها إلى إحياء مؤسسات مشتركة لترجمة آدابهما و تراثهما و مؤلفاتهما المختلفة في كل اتجاه كما نجد أيضا من روائع المقامات التي نشأت عند العرب و أبدعها بديع الزمان الهمذاني 398ه و أبي محمد القاسم بن علي الحريري 446-516هـ بعدها انتقلت إلى الأدب الفارسي على يد القافي أبي بكر حميد الدين عمر بن محمود البلفي 559هـ و قلد في مقاماته المقامات العربية أسلوبا و مادة و من هنا نرى أن التأثير بين الشعبين واضح المعالم في مجالات عدة و نستطيع القول إن دخول العرب إلى بلاد الفرس كان سببا من أسباب تحول هذا المجتمع اجتماعيا ،ودينيا ، و ثقافيا و أول مظاهر هذا التحول هو هجرة الفرس للغة الفهلوية التي ما كان يعرفها إلا عدد قليل من المثقفين و منهم كتاب الديوان ، إلى تعلم لغة دينهم الجديد و استخدام الحرف العربي في الكتابة بدلا من الحروف الفهلوية المقتبسة من الحروف السريانية و التي كانت صعبة القراءة ، خالية من المصوتات ، كشان

---

[1] من روائع الادب الفارسي د بديع محمد جمعة ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت ط 2 ، 1983 ص :189 .

[2] المرجع نفسه ص 200 .

الكتابات السامية يقرا فيها الحرف الواحد بأشكال متعددة تتخللها كلمات سريانية للفصل بين الكلمات المتشابهة تدعى "الهزوارش " تكتب بالسريانية و تقرا بالفارسية و قد كانت الكتابة العربية أسهل استعمالا .

" فمن جهة أخرى فقد طرا على التعليم تغيير عميق إذ أن التعليم سابقا كان مقصورا على الطبقات العليا من المجتمع محصورا في موضوعات معينة يدور معظمها في المجال الديني ، وبعد مجيء الإسلام كسر هذا الحاجز الذي كان يمنع أبناء الطبقة الدنيا من تحصيل العلم"[1] ، فاندفعوا بكل ما أوتوا من قوة و انكبوا على الغرف من مناهل العلم و بهذا انقسم المجتمع إلى قسمين : قسم قديم مجوسي و قسم جديد إسلامي و من الواضح إن أداة التعليم الجديدة كانت العربية و التي كانت تتطور يوما بعد يوم لتصبح لغة العلم في العالم حتى مجيء اللغات الأوروبية الحديثة لتزيحها عن مكانتها .

و بعد انتشار الفاتحين العرب في المدن الفارسية ، أصبحوا بالضرورة المعلمين الأوائل للفرس المسلمين و علياء ذلك العصر خصوصا بعد ترجمتهم للكتب اليونانية و الفهلوية إلى العربية محتكرة إياها فأخذها الفرس عنها مع إقبالهم على تحصيل جانب كبير من الثقافة العربية .

و يظهر "ذلك من خلال حفظهم الشعر العربي و الأمثال و الحكم و الأساطير و المعلومات المتعلقة بتاريخ العرب قبل الإسلام و بعده حتى عند إقامتهم للمحافل الأدبية"[2] كانوا مهتمين بالأدب العربي في بلاد الفرس مثل : " محفل الصاحب بن عباد الذي اغرم بالأدب العربي غراما لا نظير له من خلال تأليف كتبه بالعربية و صار قصره قبلة يشد إليها الأدباء الرحال حتى من بلاد العرب كرحلة المتنبي إلى الفرس كما نجد احد أجود الكتب النقدية في الأدب العربي مؤلفه فارسي الأصل و هو " علي بن عبد العزيز الجرجاني" للصاحب بن عباد الذي كتب رسالة في تبيان لأنه ترفع عن مدح الصاحب في زيارته لإيران "و من هنا نلاحظ التتبع الكبير للفرس للثقافة في أخر أشكالها

---

1 مجلة المعرفة تأثير الأدب العربي في الآداب الأجنبية ، عدد ممتاز العدادان 191 – 1992 كانون الثاني شوباط 1978

2 مجلة المعرفة مرجع السابق ص : 200.

" ومن بين شعراء الفرس الكبار الذين تتلفدوا على الشعراء العرب الرودكي ق4هـ فقد نشا بجوار سمرقند فأتم حفظ القران صبيا و قد بدا تعليمه على الطريقة القديمة ثم ظهرت ميوله الموسيقية و على يديه ظهر الفارسي الجديد في صورة تستحق الوقوف على رجليها و لكن لم يبقى مع مرور الوقت إلى القليل من شعره و من خلال هذه البقايا تتوضح لنا شاعرية هذا الشاعر كما أنها تظهر الأثر العربي بوضوح في احدى قصائده التي قالها في صحيح أبي جعفر احمد بن محمد أمير سجيستان و فيها يجري الشاعر على نهج شعراء العصر العباسي فيبدأ قصيدته بوصف الخمرة ليتخلص بعد ذلك إلى المديح فيصحح الأمير بعلو النسب و العلم فهو في فقهه كالشافعي و حكمته كحكمة لقمان ثم يصفه بالشجاعة و الكرم على عادة شعراء العرب ثم يدعو له بالبقاء و خلود العز كبقاء جبل الجودي و هي تدل جبل مذكور في القران و إما لفظة شهلان فهي أيضا اسم جبل يتكرر ذكره في إشعار العرب و من هنا يظهر لنا التأثر البارز في شعره و شعراء العرب.

و قبل الخروج من هذا الإطار الشعري المحظ نجد أيضا الشاعر الكبير منوجهري مستفيا شعره من الشعر العربي مقلدا أشكاله بذكره الإطلال ووصف الرحلة و كذلك التشبيهات المعاني و المضامين لا تكاد تخلو منها قصيدة فارسية هذا كله فيما يخص الجانب الشعري دون ننسى الشق الثاني و هو النثر و ما عرفه من إثراءات و تطورات من قبل الفرس من خلال إقبالهم على الكتابة باللغة العربية باعتبارها لغة طبعة في أيديهم من اللغة الأم و التي هي الفارسية لما كان يحوزها من مصطلحات أدبية كانت أو علمية كما أن الكتابة بالعربية تضمن للكاتب ذيوع عمله و انتشاره و قلما انتبه هؤلاء للكتابة الفارسية حيث بدأت في التقلص المستمر فعندئذ التفت العلماء و بعض الأمراء إلى ضرورة العناية بهؤلاء الذين لم تتح لهم الظروف تعلم العربية بحيث بدأت هذه المحاولة في صورة الترجمة فبدئ بترجمة تفسير الطبري بعد موافقة عدد كبير من الفقهاء و بعدها ترجم تاريخ الطبري و بهذا اعتبرت هذه الترجمات اللبنات الأولى في صرح الكتابة النثرية الفارسية.

و من جهة أخرى يمكننا القول بان استعانة الفرس بالأدب العربي لا يعني أنهم كانوا مجرد نقلة تافهين بما أن أصالتهم كانت واضحة بحيث يعتبر الأدب الفارسي الوجه الأخر للأدب الإسلامي و العربي و يظهر فيه النبوغ الفارسي شعرا و نثرا و يعتبر هذا التأثر بالشيء

الطبيعي و المنطقي في تاريخ الآداب المختلفة فلا يمكن لأمة ما إن يتطور و يتنوع أدبها إلا باتصاله بالآداب الأخرى.

نقاط الالتقاء بين الأدبين العربي و الفارسي :

"و على هذا فلم يكن بين الفارسية و العربية ما بين العربية و اللغات الأخرى بقدر ما كانت الفارسية محتاجة إلى العربية من ناحية العقيدة و مصلحاتها ' كانت العربية محتاجة إلى الفارسية من ناحيتها الاجتماعية و الثقافية أو ناحية نظام الحكم و مصطلحا ته و لهذا تم التلاؤم بين اللغتين و على أساسه حدث التأثير و التأثر و كان ظاهرا و ملموسا من ورود الكلمات الفارسية في العربية و العكس بالعكس بالإضافة إلى دخول المضامين الفارسية و حكمها في الشعر العربي "[1]

وانطلاقا من هذا القول يتضح لنا الانسجام الكبير بين اللغتين في ميادين شتى نأخذ على سبيل المثال فقد كان الأدب الفارسي يلم بالصرف و النحو العربي المامات مع حفظ الشعر حتى يكون أساسا لعمله الأدبي كما أن الأساس في الوزن في الشعريين كان كمية الحروف الموجودة في المقاطع من حيث المد و القصر ، و هذه الوحدة الموسيقية هي العامل المشترك بين الشعري ناما البحور الشعرية فالفارسي لا يستعمل الرمل الا مثمنا بينما يستعمله العربي مسدسا "و هناك أيضا أشكال شعرية أخرى معروفة "بالمثنوي" و هو ان يراعى التصريح في كل بيت و يستقل بقافيته و كان هذا النوع بالذات سببا في تقدم الشعر الفارسي و تناوله الموضوعات الطويلة كالقصة و الملحمة و يرى ينكلسون أن فقدان هذا الشكل في الشعر العربي القديم هو الذي جعله خاليا من الشعر القصصي ".

و بهذا نرى تنوع الشعر الفارسي في محطات عدة من خلال الوزن و القافية و طرحه في موضوعات شتى كالقصة مثلا بحيث نجد هذا النوع مفقودا في شعرنا العربي .

---

[1] أحمد بن محمد امبيريك المرجع السابق ص 30 – 35

"و من بين الشعراء المشهورين في ذلك الوقت نجد الشاعر الفارسي الأصل منوجهري الذي سبق و أن ذكرناه و هو شاعر القرن 5 وصفه احد الكتاب العرب في عصرنا".[1]

بقوله : " انه عربي لا يمكن التنصل من فارسيته ’ فارسي لا يمكن التنكر لعروبته و يمكن أن نقول بأنه أخي بروحه شعراء العرب مؤاخاة شعرية و استراح إلى حد بعيد في أحضان الشعر العربي فنزع منازع الفحول بينهم" [2]

فقد كان للكثير من الشعراء أهمية و دور فعالا في الأمة الأدبية العباسية من بينهم هذا الشاعر الكبير و من بين أشعاره التي قام بترجمتها الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه مختارات من الشعر الفارسي :

الا أي خيمكي خيمه فروهل　　　كه شاهنك برون شد زمنزل

تبيره زن بزد طيل نفستين　　　شتربانان همي بندند محمل

الترجمة :

إلا أيها الخيام اطو الخيمة　　　فربة الركب قد غادرت من مكان الرحال

و دق الطبل لأول مرة (الدقة الأولى)　　　مؤذنا بالرحيل وحداة الإبل قد شدوا المحمل

و من خلال هاته الأبيات الشعرية نجد تقاربا فكريا بين الشعر الفارسي و العربي من جهة الألفاظ و صياغتها في البيئة الملائمة لها و إن كان هناك اختلاف إنما من حيث اللغة و اختلاف اللهجة بين الأدبين.

"و كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية و كان كسرى انوشروات من محبي النرجس ووصفه بقوله: " هو ياقوت اصغر من در ابيض على زمرد اخضر."[3]

فقال الشاعر :

---

[1] د.بديع محمد جمعة ، المرجع السابق ، ص 190 .

[2] د.ماجدة حمود ، المرجع السابق ، ص 65 .

[3] المرجع نفسه ص: 510

و يا قوته صفراء في رأس ذرة ******** مركبة فيقام من زبرجد

كان بقايا الطل في جذباتها ******** بقية دمع فوق خد مورد

و كان ابن الرومي يأخذ حكم "بهرام جور" فينظمها شعرا عربيا .

يقول بزرجمهر : "إذا أقبلت عليك الدنيا فانفق فإنها لا تغني ، و إذا أدبرت عنك فانفق فإنها لا تبقى ، و قال الشاعر العباسي :

فانفق و إذا أنفقت أن كنت موسرا   و انفق على ما خيلت حين تعسر

فلا الجود يغني و الجد مقبل   و لا البخل يبقى المال و الجد مدبر[1]"

وقد حاول بعض المؤرخين للأدب الفارسي من الباحثين المعاصرين اعتبار هذه المحاولات بمثابة بعث الروح القومية و تقوية الفارسية لتكون بديلا من العربية و لكن الشواهد تدحض مزاعمهم و على رأس هذه الشواهد هو أن كبار المؤلفين في العلوم العقلية ظلوا يكتبون أبحاثهم بالعربية في العصور الأخيرة ايمع بداية ق 19 م و إن التأليف بالعربية مثمر حتى يومنا هذا و ان اقتصر على الناحية الدينية أو يتصل بها"[2]

و من خلال هذا القول يتضح لنا التعلق الكبير للفارسيين باللغة العربية بالرغم من محاولاتهم إنكار هذه الحقيقة بان اللغة العربية أخذت مجالا أوسع من ثقافتهم و تعليمهم و نرى ذلك بارزا في بعض مؤلفاتهم الدينية بلغتهم المحلية "ككشف المحجوب " للجويري في التصوف " إذ يعتبر الأدب الصوفي ركيزة هامة من ركائز الأدب الفارسي و كما هو معروف أن قصص المتصوفة و حكاياتهم في مجملها مأخوذة من حياة النبي و أصحابه أو كبار رجال الإسلام كما تابع المتصوفة الفرس التصوف العربي في أخر مراحله كما بلغ هذا التأثير على يد ابن عربي الذي طبع التصوف الإسلامي بطابعه كما أن زعمهم التأليف

---

[2]-ينظر مقال سعيد زفسي : محيط زندكي و أحوال و إشعار رودكي طهران 1341ص 504

[1]-بتصرف مقال الدكتور سيد حسين مصر في الكتاب التذكاري لمحي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة القاهرة 1929 تحت عنوان

باللغة الفارسية الاستغناء عن العربية فكرة يكذبها واقع الأدب الفارسي الذي يشكو فقرا ظاهرا في هذه الناحية أي الكتابة النثرية.

"لقد تابع النثر الفارسي خط الأدب العربي فبدا سهلا ، غير متكلف ثم تدرج إلى التصنع و التحلي بآثار علم البديع على يد كتاب الديوان في رسائلهم أو كتبهم و هذه التزينات اللفظية تابع فيها هؤلاء الكتاب كتاب الأدب العربي و قد ظهرت هذه الصنعة في ترجمة أبي المعالي نصر الله لكتاب كليلة و دمنة و كتاباته بنثر مسجع ، كما نجد الشاعر و الكاتب الفارسي "سعدي الشرازي " الذي كتب أجود كتاب في النثر الفني في اللغة الفارسية كما ان

كتابه لم يخل من هاته المتعة التي تحدثنا عنها كما انه أولع بأستاذه ابن الجوزي "بمواضعه السجعية و لعا كبيرا كما هو ظاهر في كتاب "المدهشو"

وخلاصة هذا القول ان الفضل الكبير للتراث الفارسي يعود للعرب و الذي يحاول بعض الباحثين المعاصرين طمسه مع دعمهم لذلك بعض المستشرقين و سعيهم الى تنحية التأثير العربي و أصالته و ذلك بدخولهم في متاهات خرافية مجوسية أسطورية لا تسمن و لا تغني من جوع .كما ان هذه الحقيقة التي يعلمونها و في نفس الوقت يتجاهلونها تبقى راسخة في عمق التراث الفارسي القديم.

المبحث الثاني : صور الفرس في كتاب البخلاء

" عرف الجاحظ في كتابه البيان والتبين بدفاعه عن العرب في وجه الشعوبية والتي هي حركة تعتبر بالتراث الكياساني وتدعو إلى إحياء جوانب منه ونرفع شعارا أفضلية الأمم الأخرى على العرب ومنه يتصور المرء حين يرى الجاحظ مدافعا عن العرب ومهاجما الحركة الشعوبية أن صورة الفرس في أدبه ستكون صورة مشوهة يخصها بدلالات سلبية في حيث يخص العرب بدلالات إيجابية ، لكن الجاحظ شأنه شأن كل أديب عظيم أبعد ما يكون عن التعصب والعنصرية إذا كان كما يقول الدكتور الطاهر المكي لا يقاتل الشعوبية

اتجاها سياسيا لكنه لم يكن معاديا للثقافات الأجنبية و لا يستطيع أحد يتهمه بالتعصب أو بقصر النظر أو بضيق النظر أو بضيق الأفق"[1]

وكي لا يقال : هذا كلام عام لا علاقة له بالواقع المعيش، نورد ما جاء في كتاب البخلاء الموضع الوحيد الذي ذكرت فيه الشعوبية (الجزء الثاني (ص202-203)) لكلا الصفات الملحقة بهم هل كانت سلبية بالمطلق أم صدرت عن كاتب موضوعي ينقل لنا الحقيقة بأمانة يقول" والشعوبية تدعى الرجال الأحرار المبغضون لآل النبي صلى الله عليه وسلم " وأصحابه ممن فتح الفتوح ، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام وهم أحسن الأمم حالا مع الغيث وأسوئهم حالا، إذا خفت السحاب، حتى إذا طبق الغيث الأرض بالكلأ الماء فعند ذلك يقول المصرم (السئ الحال الكثير العيال) والعقتر مرعي ولا أكولة وعشب ولا بعير....." [2]

و هنا نلاحظ وسفا موضوعيا بإبعاده نهمة البخل ورأي حالهم كحال غيرهم من الناس يعيشون في أيام الخصب حياة مرفهة كريمة' ثم في ضيق من العيش أيام الجفاف لذلك لا أستطيع أن نسعيهم بالبخل فحالهم كحال القرية العربية وهذا التعاطف الإنساني واضح مع هؤلاء الذين كان على خلاف فكري معهم وحاول أن ينقل لنا ما يحول في أعماق من أسي بعد هطول المطر، أثر جفاف قضى ماشيتهم فيتحسرون قائلين (مرعى ولا أكولة ، وعشب ولا بعير)

دلالة الإسم والصفة :

بالرغم من أن الجاحظ لم يعد البخل سعة تشين صاحبها فقد لا حظنا أنه مازال محكوما بالمورون من القيم، ففي مقدمة الكتاب وجدناه يصف البخل بالعار الذي يلحق بصاحبه وبالكتاب أيضا ثم يلمح إلى أنه من عيوب كتابه أنه أهمل كثيرا من القصص حتى لا يحرج بذكر أسماء أصحابها وبينهم الصديق والولي والعشور

[1] د . الطاهر مكي ، في الادب المقارن دراسات نظرية و تطبيقية دار المعارف القاهرة ط 3 سنة 1997 ص 28 .

[2] المرجع نفسه ص: 30 .

إذ تبدو لنا قصص البخل متداولة في عصره مع أسماء أصحابه فإذا أثبتها الجاحظ في كتابه دون ذكر الإسم فسرعان ماتراءئ للقارئ الاسم لأنه رديف القصة فيبدو المؤلف متجنبا عليهم، قد إرتكب إنما في حق الصديق لذا أغفل الاسم خوف على سمعة أصدقائه تارة وخوفا على نفسه حين يكون البخيل من أصحاب السلطة

لكنه أحيانا يسمى إسم صديقه إذا كان مما يمازح بهذا ورأيناه يتنظر ويجعل ذلك الظرف سلعا إلى منع شيئه قال الجاحظ لرجل يدعى عبد الله قد رضيت بأن يقال عبد الله البخيل : قال لا أعد من الله هذا الإسم قلت وكيف ؟

" قال: لا يقال فلا ن سخي إلا وهو ذو مال فقد جمع الحمد والمال واسم البخل بجمع المال والذم فقد أخذت أخسهما وأوضاعهما.

قال وبينهما فرق قلت: فهاته قال في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه وفي قولهم سخي: إخبار عن خروج المال من ملكه واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم واسم السخي فيه تضييع وحمد"[1]

ومن خلال هذا القول نلاحظ الطريقة التي يفكر بها هذا البخيل وهمه الوحيد وهو المال دون اكتراثه لأقاويل الناس المهم عنده تثبيت المال في جيبه والباقي لا يهمه إذ كان اسمه ملتصقا بصفة البخل وهنا تحولت صفة البخيل إلى لقب لعبد الله يفتخر به ويدافع عنه بحماسة لنلاحظ الدلالة الموحية لاسم عبد فالبخيل لا يأنف أن يكون عبد البخل كما هو عبد الله تعالى فهو يخترع نظرية في البخل وبدافع عنها بإيجاد الدلالات السلبية وذكر ، ليجد العزاء فيها والمفخرة وهو في المقابل بهدم صرح الكرم بتركيزه على الدلالات السلبية وإهماله الإيجابية وبذلك يصبح البخيل صاحب مذهب في الحياة وفي الفكر أيضا.

" وبحد إجراء عدة إحصائيات لأبطال قصص البخلاء ولوحظ أن الأصمعي قد احتل المرتبة (3) في نسبة الورود في الكتاب وذلك بحد النبي صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب كما احتل سهل بن هارون الدرجة الرابعة كما لوحظ ورود لفظ الجلالة

---

1 البخلاء ،المصدر السابق ،ص:35

لديه أكثر من أي غسم علم وهذا دليل على استغلال الخطاب الديني الإسلامي من قبل البخلاء وبذلك

" يعلن الجاحظ انتماء بخلائه إلى المجتمع الإسلامي فلا يهمهم بالكفر حين خرجوا عن عادات المجتمع السائدة وقيمه العليا وهذا دليل على تفتح فكر المؤلف وكذلك نلاحظ موضوعيته فالعربي الأصمعي قد يذكر لديه في باب البخل أكثر من الفارسي (سهل ب هارون وهنا يمكننا القول بأن ذكر الجاحظ لأسماء البخلاء ليس من باب التشهير أو تشويه صورة أمة دون أخرى وإنما رصد لظاهرة اجتماعية باتت منتشرة في عصره وتقديمها بأسلوب يجمع المتعة والفائدة "[1]

وقد لاحظنا أن الجاحظ قلما يكون راويا للقصة وبطلا مشاركا في أحداثها فهو في أكثر الأحيان يتخذ صفة الراوي المحايد الذي ينقل عن الآخرين قصته فنجده يمهد لهل بقوله قال أصحابنا" حدثني عمرون نهيوي" " حدثتني امرأة تعرف الأمور" إلخ.

وبذلك يوحي للملتقي بحياديته التامة فهو يجمع القصص والنوادر من ألسنة الرواة الآخرين الذين سمعوها أو شهدوها بأنفسهم أو كانوا أحد أبطالها فيضفي المصداقية الواقعية على قصصه.

صور من بخلاء الفرس لدى الجاحظ:

1- سهل بن هارون:

"عرف به الجاحظ في كتبه (البخلاء-البيان- التبين والحيوان) إذ يبعد من أهم الكتاب الذين ظهروا في العصر العباسي ولو تأملنا رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه من آل رهبون حين فهموا مذهبه في البخل وردوا عليه بحد أن تتبعوا كلامه في الكتب نلاحظ وحدة الثقافة العربية الفارسية في العصر العباسي فبإضافة لإلى كونها قد كتبت ببلاغة عربية نجد سهل بن هارون يستشهد فيها بأحاديث الرسول(ص) وبأقوال الخلفاء والتابعين الذين عرفوا بالتقشف والزهد أمثال عمر بن الخطاب والإمام علي بن أبي طالب وفي المقابل نجد العرب في كتاب البخلاء يرددون أقوال الفرس فقد ردد أبو العص بن عبد الوهاب بن عبد

د ماجدة حمود المرجع السابق ص: 39[1]

المجيد الثقفي قول سهل في ضرورة أن يأخذ المرء الحيطة من مصائب الزمان " فيجعل ما فضل عن قوام الأبدان ردءا دون ظروف الزمان..."[1]
يقدم لنا هذا النص صورة صادقة لتأثر العربي من (قبيلة بني ثقيف) بالأخر الفارسي الذي لم يعد ثقافة غريبة عنه بل صار جزءا حيويا من الثقافة العربية الإسلامية

يؤثر فيها بعد أن اجتاز مرحلة التأثر و بدا مرحلة الابتكار و بدلك تجلت في هده الثقافة العلاقات الحضارية بين الشعوب المختلفة خاصة حين تتخذ تعاليم الإسلام هاديا لها فتنفتح على الآخرين .

2 <u>أهل خراسان</u> :

"يقول الجاحظ و قال أبو نواس كان معنا في السفينة من أهل فرسان و كان من عقلائهم و فهمناهم و كان يأكل وحده فقلت له لم تأكل وحدك ؟ قال ليس علي في هدا الموضع مسالة و إنما المسالة على من أكل مع الجماعة لان دلك هو التكلف و أكلي وحدي هو الأصل "[2]

و هنا من خلال هدا القول يجسدنا بخيل الجاحظ صورة عن ثقافة مبدعة أي صورة لثقافة العصر العباسي التي تعتمد الجدل العقلي (ثقافة معتزلة) فيحول قضية يومية بسيطة الأكل وحده) إلى مسالة إشكالية يدافع عنها حسب أصول المنطق وفي موضع آخر نجد الجاحظ يلتمس العذر لخراسانينا في بغلهم الذي بات جزءا من تكوينهم النفسي وتربيتهم مما ترك أثرا ليس فقط على حياتهم اليومية وإنما على حياة حيواناتهم وكذا وضع لنا الجاحظ هذا وقال : تمامة لم أر الدبك في بلد قط إلا وهو لاقط يأخذ الحب بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة الديكة مرو فإني رأيتها تسلب الدجاج مافي مناقيرها من الحب فعلمت أن بخلهم شئ في طيع البلاد ، وفي جواهر العاء فعنا ثم عم جميع حياتهم

-بفضل المبالغة التي ظهرت في هذه القصة أشاع الجاحظ جو المرح فعدوى البخل في مرو وصلت حدا غير معقول إذ باتت جزءا من عدات الحيوان، وهنا يوحي الجاحظ للعنلقي

[1] الجاحظ البخلاء كتاب نوادر البخلاء و احتجاج الأشحاء تحقيق د عمر الطباع ص: 18

[2] د ماجدة حمود مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، سنة 2000 ، ص 75 .

أن هؤلاء الأهالي غير مسؤولين عن بخلهم الذي عم جميع نواحي حياتهم ، حتى أطفالهم يولدون على فطرة البخل.

المبحث الثاني : خصوصية العلاقة العربية الفارسية في كتاب البخلاء

لأظهر لنا كتاب "البخلاء" تمازج العرب والفرس بشكل مدهش في العصر العباسي على كافة المستويات الاجتماعية والثقافية .. ويمكننا القول بأن الفرس أكثر الأمم اختلاطا بالعرب، مما يجعلنا نؤكد مع الأستاذ أحمد لواسيني

" ما عرف "تاريخ الإنسانية" أمتين مختلفتين اختلاف العرب والإيرانيين في العرق والفكر والبيئة واللسان ، ومع ذّلك فقد كان تلاقيهما السياسي والاجتماعي ثم الفكري الحضاري أكثر غنى من أية أمتين أخريين..."[1]

– وقد رأينا مصداقا لهذا القول حين قدم لنا الجاحظ (سهل بن هارون) إذ لاحظنا أن الفرس باتوا يشكلون لبنة أساسية من لبنات الحضارة الإسلامية وجزءا حيويا من المجتمع العباسي وفي نفس الوقت لا نستطيع أن تنفي وجود مشاعر عدائية لدى بعض الشعوبيين والمتعصبين، ومثل هذا الشعور لن يعكر الروح الإسلامية التي تبدت لنا في لحظة صفاء حضاري في أدب الجاحظ، فالأدب العظيم يستطيع أن يعكس صورة حقيقية للأمة في واقعها التاريخي الذي عاشته فعلا، كما يعكس صورة اللاوعي وكل المسكوت عنه الذي يخدش حياء الأمة فيستطيع أن يقدم صورة أمينة عن حياتها مجسدا سلبياتها وإيجابياتها ولهذا عايشنا بفضل الجاحظ الحضرية المستقرة فرصد لنا لحظة تغير العادات والتفكير.

د ماجدة حمود المرجع السابق[1]

– كما جسد لنا إيجابيات هذا العصر وروحه الإسلامية السمحة التي تبدت في التعامل مع الفرس الذين انصهروا في المجتمع العباسي ولهذا لم نجد مشاعر عدائية ضدهم ، وحين ذكر الكندي في كتاب " البخلاء" أعداء المسلمين الروم والترك لم يذكر الفرس بينهم فقد أصبحوا مسلمين وباتوا جزءا من المجتمع.

– وقد تتضح لنا خصوصية هذه العلاقة بين الفرس والعرب في هذه القصة،" فقد استدان عربي من ثقيف مالا من رجل فارسي يدعى باسم لا يوحي لنا بهويته وهو أبو سعيد ألمدائني الذي كان يزور الرجل المستدين في وقت طعامه ليذكره بالدين فقال له أحد أصدقاء المستدين وهو من ثقيف أيضا بأنه لو أراد التقاضي المحض لكان ذلك في المسجد ولم يكن في الموضع الذي يحضر فيه الغذاء."[1]

– فغضب الفارسي الذي وصفه الجاحظ " كان أبو سعيد مع نجله أشد الناس نفسا وأتاهم أنف رأي أبعدهم عن احتمال الذل وثار لكرامته فمزق الصك

والكتاب الذي يثبت حقه في الدين ، وقال لكل من شهد المجلس هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان ، اشهدوا جميعا أني قبضت منه وأنه برئ فتضطر الثقفي أن يبيع ثماره قبل أن تنضج ليسرع في وفاء الدين وحين جاء بالمال إلى أبي سعيد أبى أن يأخذه فلما كثر إلحاح الثقفي عليه، قال مشترطا عليه " أظن الذي دعا صاحبك إلى ما قاله أنه عربي وأنا مولى ، فإن جعلت شفعاءك من الموالي لأخذت هذا المال وإن لم تفعل فإنني لا أخذه فجمع الثقفي كل شعوبي بالبصرة حتى طلبوا إليه أخذ المال " [2]

إننا أمام مشهد حي لعصر الجاحظ، يبرز لنسا مدى تمازج العرب بالفرس ومدى المشاركة الفعالة للفرس في الحياة الاجتماعية (استدانة العربي من الفارسي ومشاركته في الطعام).

ورغم أن الفارسي كان بخيلا إلا أنه لم يبد لنا في صورة منفرة، فقد امتلك من الصفات النبيلة ما يجعل صورة البخيل باهتة أو مشكوكا فيها، إذ ليس سهلا على البخيل النموذجي الذي نعرفه اليوم رفض ألف دينار من أجل كرامته ومن جهة أخرى فقد بدا لنا الفارسي في هذه القصة ندا للعربي ، يشترط عليه شرطا صعبا، لا يستطيع أي إنسان قبوله ، لكن العربي الحريص على إبقاء دينه وعلى إقامة علاقة طيبة مع الفارسي ينقد

[1] البخلاء ج2 المصدر السابق ص: 73
[2] البخلاء المصدر نفسه ص: 80

هذا الشرط ، فيترك أصدقاءه العرب ، ويرجو الموالي يشفعوا له عند ألمدائني ، فيأتي بهم ليلحوا عليه كي يسترد ، دينه (ألف دينار)

- نلمح في هذا المشهد أيضا بعض الحساسية المسكوت عنها بين العرب والفرس نقلها لنا الجاحظ على لسان العربي الثقفي حين عرض ببخل أبي سعيد وعلى لسان الفارسي أبي سعيد حين وضع الأسباب العرقية لهذا التعريض (إنه عربي وأنا مولى) لذلك اشترط على المستدين ما يعلي شأن قومه، وقد قبله ليعيد الحق إلى صاحبه ، وبذلك سعة الأخلاق الرفيعة بالإنسان وبناءا على ذلك لا يمكننا أن نجد ظاهرة التعصب العنصري ضد الأخر ظاهرة عامة.
- وهكذا نقل لنا الجاحظ في هذه القصة الانفتاح نحو الأخر كما نقل الحساسية التي تشوه هذا الانفتاح والتي لا يمكن أن تنتهي بين ليلة وضحاها وإن كانت هذه القصة تعزز الانفتاح نحو الأخر أي المعاشرة اليومية بين الفرس والعرب والسمات النبيلة التي أضفاها على الفارسي والعربي معا مما يخفف الحساسية بين الأنا و الأخر والتواصل بينهما.

إذ عايشنا في كتاب البخلاء بعض العادات التربوية التي ضرورية لبناء جسور التواصل الإنساني مع الأخر، كما عايشنا بعض العادات الفارسية في الطعام التي تنبئ عن إعجاب العرب بها خاصة تلك التي تتعلق بآداب المائدة لهذا لم يكن يدعو الحارثي أباتك لتصرفاته المشينة على المائدة ويفضل عليه الدهاقين من الفرس الذين يعيبون

" الحسو أي شرب المرق من الإناء وتقززوا من التعرق أي نهش ما على العظم من اللحم، وبهرجوا صاحب التمشيش أي عابوا على استخراج المخ من العظم ، وحين أكلوا بالبارحين أي شئ كالشوكة وقطعوا بالسكين ولزموا عند الطعام الصمت وتركوا الخوض..."[1]

ونلاحظ هنا إعجاب العرب بعادات الفرس المدنية: كالأكل بالشوكة والسكين والصمت أثناء الطعام ونفورهم من عادات البدو كاحسو والتمشيش والتعرق لكن ثمة عادات فارسية لم يحجب به العرب، حتى وجدنا بعض أبطال الجاحظ يرفضها، كعمرو بن قعقاع الذي أزعجه أن ينوع خادمه الطعام لضيوفه وقال لخادمه فهلا جعلته طعام يد ولم تجعله طعام يدين وقد علق الجاحظ والقعقاع عربي كره لمولاه أن يرغب عن طعام العرب إلى طعام

[1] البخلاء المصدر السابق ص: 86

العجم وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه، وأن الثروة فتنفهم (تذلهم وتفسدهم وأن الذي فتح عليهم من باب الترف أشد مما غلق عليهم من باب فضول اللذة أي الفقر

إن رفض عادات الأخر السيئة ينبئ عن وعي الشخصية بأصالة الهوية التي تقوم على احترام الموروث الديني والسلوكي (عادات الطعام البسيطة) لذلك رفض العربي طريقة الفرس الباذخة التي تقوم على تعدد أصناف الطعام ، وهذا لا يعد رفضا للأخر وإنما رفض لكل ما يشوه شخصية المسلم ، نلمح لديه خوفا من التفسخ الحضاري الذي تجلبه كل مبالغة في الطعام والملبس والمسكن ويمكننا القول بأن الترف كان أحد أسباب سقوط الدولة العباسية.

-ثمة في كتاب البخلاء صور أخرى للتفاعل الحضاري والامتزاج الاجتماعي بين العرب والفرس وقد تبدت في الامتزاج اللغوي بين الفارسية والعربية وقد ظهر في قصص الجاحظ، التي تناولت الحياة اليومية وما يتصل بها من أدوات الطعام (خوان البارجين) وأضافه (فالودج، الخشكناه)

لم تبد لنا هذه اللغة غريبة فهي معربة أي منسجمة مع السياق العربي ببعديه الاجتماعي والثقافي " جعل طعامه كله فالوذجا" أو قوله : وقد عاب ناس على أهل المازج... بأمور منها أن خشكنازهم(الخبز الجاف) من دقيق الشعير والجاحظ

لم يستخدم الجاحظ ألفاظا فارسية ذات صلة بالطعام فقط، بل وجدناه يتخدم ألفاظا بصوت أحد البخلاء تتعلق بمظاهر الإحتيال التي شاعت في العصر العباسي فيبين معرفته بأنواع المحتالين(مخطراني، مستعرض الأقفيه شحاذ، كاغاني، بانوان) وشرح لنا بالتفصيل ماذا تعني كلمة كاغاني (الشحاذ الذي يتظاهر بالجنون ليستدر عطف الناس، أما البانوان فتعني ذاك الذي يخف على الباب ويالغق ويقول: بانوا وتفسير ذالك بالعربية : يامولاي

خاتمـــــــة

الخاتمة

وفــي الختام نستنتــج مما سبــق أن الجاحظ حاول أن يصــور لنــا بخــلاء عصــره و يصفهم وصفا موضوعيا دون أن يتهمهم بالبخل حيث يعلن الجاحظ انتماء بخلائه إلى المجتمع الإسلامي زيادة على الفارسي فلا يصفهم بالكفر حيث خرجوا عن عادات المجتمع العربي الإسلامي وقيمته العليا و هذا دليل على تفتح فكر المؤلف و يمكننا القول بأن ذكر الجاحظ لأسماء البخلاء ليس من باب التشهير أو التشويه صورة أمة دون أخرى و إنما ر صــد لظاهــرة اجتماعيــة باتت منتشرة في عصرها و تقديمها بأسلــوب يجمع بيــن المتعة و الفائدة كما لاحظنا أن الجاحظ قلما يكون راويا للقصــة و بطلا مشاركا في أحداثها فهو في اكثر الأحيان يتخذ صفة الراوي المحايد .

كما وجدنا أيضا بأن كتاب البخلاء غني بنوادر سلسة في أسلوبه كما نقل لنا هذا الكتاب مشاهد حية للعصر العباسي تبرز لنا مدى تمازج العرب بالفرس من خلال الامتزاج اللغوي بين الفارسية و العربية ونرى بأن الكاتب حارب صفة البخل ووصفها بالظاهرة اداخلة على العرب و ذلك بطرق غير مباشرة لتفادي جرح نفسية البخيل .

وفي الاخير نأمل أن نكون قد وفقنا في إيصال هدفنا المنشود و إفادة طلبة المستقبل و لو بكم ضئيل من المعلومات و نتمنى في المستقبل القريب أن يكون بصيص نورنا شعلة العلم و استيفائه بكم من الدراسات ترف بدرجته شأنا .

قائمـــــة المصـــــــــادر و المراجـــــع

قائمـــــــــة المصادر و المراجع :

المصادر :

- **القرآن الكريم :**

سورة آل عمران الآية 06

سورة الانفطار الآية 08

- إبن المنظور ، لسان العرب ، دار الصادر بيروت ، طبعة جديدة ، مجلد سابع
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق عباس عبد الساتر .
- الجاحظ البخلاء ، شرح العوامري و علي الجارم ، دار الكتب ، بيروت 193 .
- الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، القاهرة ، مطبعة الإستقامة
- ياقوت الحموي المعجم الإبداء (ط) الأخيرة ، القاهرة مطبوعات ، دار العمون بدون طبعة .
- الجاحظ ، الحيوان ، ج1 ، تحقيق عبد السلام محمد الهارون .
- محمود شاكر ، كتاب التاريخ الإسلامي للدولة العباسية ، المكتب الإسلامي 2000 ج ح

المراجع :

- الجاحظ في البصرة و بغداد و سامراء ، ترجمة د.إبراهيم الكليماني ، ط1 ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع .
- أبو عثمان عمرو بن بحر ، الجاحظ البخلاء ، تحقيق محمد التويمي ، (ط1) ، دار الجيل للنشر و الطباعة .
- الجاحظ ، كتاب نوادر البخلاء و و إحتجاج الأشقاء د.عمر الطباع ص 20 – 25
- بطرس البستاني أدباء العرب في الأعصر العباسية حياتهم آثارهم نقد آثارهم طبعه جديدة د.نظير عبود ص271
- الفاخوري حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي دار الجيل بيروت لبنان.
- . الدكتور طه الحاجري الجاحظ حياته و آثاره (ط2) دار المعارف بمصر.

- محمد خفاجي الحياة الأدبية في العصر العباسي (ط1) .
- د.شوقي ضيف العصر العباسي الثاني دار المعارف بمصر ط2 .
- مصطفي الشعكة بديع الزمان الهمداني رائد القصة للعربية و المقالة الصحفية .
- رابعة عبد السلام المجالي ملامح الحياة العباسية من خلال كتاب الحيوان للجاحظ (ط1) 1428 هـ 2008م دار كنوز المعرفة العلمية للنشر و التوزيع ص(16-17)
- علي عبد المنعم عبد الحميد ، أدب المقامة ، التموقع الإنساني ، في أدب المقامة .
- محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية (ط) 14307 دار النفائس للطباعة و النشر و التوزيع .
- د.ماجدة حمود صورة الأخرى في التراث العربي الدار العربية للعلوم ناشورن .
- د.ماجدة حمود مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، غتحاد الكتاب العرب ، دمشق (ط1) سنة 2000.
- الطاهر مكي في الأدب المقارن دراسات نظرية و تطبيقية دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، 1997 .

الفهـــــرس

عنــوان البحــث :صـورة الفـرس في كتـاب البخـلاء للجاحـظ